الفصل الحادي عشر

مفهوم الصراع والبطل المخلّص في الهلال الخصيب (فلسفة الاستشهاد)

سلام إبراهيم(*)

أولاً: دور البطل في التاريخ

إذا كان التاريخ، لبعضهم، هو سجل سير حياة الأمم، فهو يسجل الأفعال لا النيات والأقوال، كذلك الأمر بالنسبة إلى تاريخ الفلسفة، حيثُ من سماته تسجيل الوقائع الفلسفية بدءاً من الأسئلة الأولى والأجوبة الأولى. ولشعبنا في الهلال الخصيب، منذُ فجر الحضارة الإنسانية، تاريخ فعل وصراع تكشّف فيه توحد القول بالفعل، في أشرس وأطول معركة وجودية عرفها التاريخ، بين إرادة أمة ناهضة لانتصار حياتها على أرضها انتصاراً للقيم الإنسانية، وبين عصابات تجمعت فلولها من جميع أصقاع الأرض حقداً وتدميراً وخراباً ضدّ الإنسانية. وجاء الردّ الحضاري، اليوم، على هذه الموجة البربرية المنظمة، أجساد الاستشهاديين من أبناء شعبنا يفجرون أنفسهم، طوعاً واختياراً، من أجل حياة الأمة وقيم الحقّ والعدالة الإنسانيين، بحيث أصبحت المسألة الفلسطينية، من ضمن قضيتنا القومية الكبرى، دعوة ملحّة لإعادة السؤال الفلسفي حول منطق الحقّ والعدالة الإنسانيين، في تجربة فريدة في تاريخ الشعوب.

اليوم، ها هي «إسرائيل» تجاهر بباطلها ترسانة عسكرية لا نظير لها، وها نحن

(*) الحزب القومي السوري الاجتماعي ـ لبنان.

في الهلال الخصيب نجاهر بحقنا استشهاداً، تطبيقاً لفكرة بل لفلسفة متجذرة في البنية الذهنية لشعبنا منذُ ألاف السنين. إن المضمون القيمي لعملية الصراع التي يخوضها شعبنا، اليوم، من أجل العدل والمساواة وحق الحياة والاستمرار، فجرت وجداننا الداخلي ـ بما هو تعبير عن بنية ثقافية أصيلة ـ عندما فجر إنساننا نفسه «قنبلة»، طوعاً واختياراً، في وجه أعداء الحياة، بل في وجه فلسفة القوة المتجبّرة، التي تدير العالم اليوم، بعيداً عن كُلّ المضامين القيمية لوجود الإنسان. إن الموت الإرادي المعاصر، أي الاستشهاد، الذي نشهده ونحياه يومياً في أماكن متعددة من بلادنا، يستمد جذوره مما يكمن في البنية الذهنية الثقافية الحضارية لمجتمعنا السوري، من قيم البطولة والفداء والبعث والقيامة، كما من قيم الانتصار والارتقاء والتقدم بحياة الجماعة، التي تزخر بها النصوص الأدبية والفلسفية والدينية القديمة في منطقة الهلال الخصيب.

في بلادنا، شكّلت ظاهرة الموت الإرادي/ الاستشهاد ـ وهي قمة التعبير عن فعل الصراع ـ سؤالاً يتمحور حول مفاهيم القيم الإنسانية من ضمن منظومة فلسفة الأخلاق، متوجاً إياها بفلسفة الاستشهاد، دفاعاً عن قيم الحقّ والعدالة الإنسانيين.

ثانياً: مفهوم الصراع بين النظر والتطبيق

حتّى اليوم، لا تزال صورة «البطل قاتل التنين»، شائعة في بلادنا، تمثل شاباً راكباً الغيم، حاملاً بيده سهماً هو الصاعقة «صارعاً التنين متعدد الرؤوس، قاتلاً لوياتان الحية الشريرة الطالعة من البحر، ذات الرؤوس السبعة»[1].

أما وصيته الكبرى: «لتتوقف الحرب في الأرض، وتهدأ قرقعة السلاح، وليصب السلام في أعماق الأرض، وتستقر البهجة في صدر الدنيا»[2].

إنها ملامح انتصار بعد صراع. والصراع في ثقافة الهلال الخصيب (وادي الرافدين، آرام وكنعان)، وفي ديانات الخصب السورية، هو مبدأ حياة ووجود، لأنه صراع منطق الحياة بين الحقّ والباطل، وبين النظام والفوضى، وبين الحياة والموت، ليكون انتصار الحياة بمظاهرها: البناء والنظام والنمو والاستمرار والتقدم؛ وبقيمها: الحقّ والحرية والعدالة الإنسانية. أنّه حوار القوى الكونية ـ والإنسان مرتكزها ـ يبرز في النصوص القديمة التي تعود إلى خمسة ألاف عام ق. م.

---

(١) **نصوص أوغاريت** (الألف الثاني ق. م).

(٢) المصدر نفسه.

ولما كانت الحضارة هي نتاج كُلّ فعل عقلاني ـ إنساني ـ مجتمعي، فقد كانت النصوص القديمة، أول الوثائق المعبرة ـ فكراً ـ عن بدء فعالية العقل في تدوين أولى التساؤلات التي تحمل مضامين فلسفية في الإنسان والوجود، وتعلن أول شرعة لحقوق الإنسان، على الرغم من إشباعها بمحاكاة الوجدان والخيال الإنساني بما يتلاءم ومستوى منظومة الاستكشاف العقلي والتحقق المعرفي في ذلك الزمان، ففي هذه النصوص أول خوض وأول إعلان لمسألة حقوق الإنسان في التاريخ، وقد وردت لأول مرة كلمة «حرية» (أمارجي بالسومرية) في وثيقة المصلح الاجتماعي السومري أوروكاجينا[٣]، كما في وثيقة الملك أورنمو[٤]، حيثُ تؤكد الوثيقتان على «الحرية»، «كحق من حقوق الإنسان وواجب من واجبات الحاكم». والنصّ نفسه، عبّر عن ذلك التداخل العميق الذي ميَّز علاقة إنسان المنطقة بالطبيعة وقواها، في بيئة تحتمل كُلّ التحولات. من هنا، كانت هذه الطبيعة وتحولاتها، هي الوجه العملي الأول الذي أعطى للإنسان تصوراً لقوى مدبرة، منظمة بانية، في الوجود نفسه، مقابل قوة تدميرية مخرّبة، توجب حركة صراع مستمرة لحفظ الحياة الإنسانية، وانتصار قيمها الجميلة في النمو والاستمرار. ضمن هذه النظرة إلى الوجود، خلق الإنسان السومري آلهته ـ نموذجاً لتفاعله مع الوجود ـ يعمل مع آلهة الخصب والبناء والاستمرار، راغباً في البذل والتضحية والفداء، مصارعاً كُلّ ما هو موت ودمار وسكون، ففي الوجود حركة صراع مستمرة، وهناك حركة تفاعل تكمن في أوجه الصراع المختلفة، فخلق العالم، بتصوره، لم يتم إلا بثورة الآلهة الجديدة على الآلهة القديمة، ثورة آلهة الفعل على آلهة العماء الأول، أما غايتها: الحياة الإنسانية ـ الوجود الإنساني ومصلحته ومصيره (استمراريته). إنها حركة صراع موجبة، لا سالبة، وهي المرتكز البنائي الحضاري للاتجاه النفسي والذهني لإنسان المنطقة، فالغاية الأولى التي رأتها هذه الذهنية خلف كُلّ حركة، هي الصراع: الصراع من أجل انتصار الحياة الإنسانية وقيمها، وتجدد هذا الصراع في دورة لا نهاية لها.

وحين نبحث عن الاستمرارية التي تمتعت بها حضارة الهلال الخصيب، طوال ما

---

(٣) أوروكاجينا، صاحب الإصلاحات الشهيرة، الأولى في التاريخ، التي عدت أقدم تشريعات إصلاحية في تاريخ البشرية. آخر حكام دولة «لغش» السومرية (٢٣٧٨ ـ ٢٣٧٠ق. م) حكم ثمانية أعوام فقط بعد أن سيطر على الحكم بأول انقلاب عسكري في التاريخ ليقوم بإصلاحاته الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية وحتى الدينيّة ـ كان جريئاً ومحايداً.

(٤) ينتمي إلى حكام سلالة أور الثالثة التي دام حكمها من (٢١١٢ ـ ٢٠٠٤ ق. م) والتي حكم فيها خمسة ملوك. حكم ثمانية عشر عاماً. وخد الهلال الخصيب «مهد الطريق من الجهات السفلى إلى الجهات العليا ومن البحر الأسفل (الخليج)، إلى البحر الأعلى (المتوسط). (حكم من ٢١١٢ ـ ٢٠٩٥ ق. م) عُرف بشرائعه الحقوقية التي ساهمت في إثراء الدولة الأكادية.

يقارب خمسة آلاف عام، فأول ما يلفت انتباهنا في التراث الفكري لهذه الحضارة، هو فلسفته للطبيعة، منسجماً في واقعه معها، مصنفاً حركاتها قيماً إنسانية، عاملاً على تنظيم علاقاته بها، مشاركاً في نظامها كقوة فعل، متخذاً في حياته العملية نهج الصراع، رمزاً وفعلاً. في التراث الفكري القديم للهلال الخصيب، لم يتخيل إنسان المنطقة عالماً لا صراع فيه. إذ هناك خير وشرّ، حياة وموت، نظام وفوضى، بناء ودمار. إذاً، هناك قوى خير وقوى شرّ، قوى حياة وقوى موت، قوى نظام وقوى فوضى، قوى بناء وقوى دمار. لذا، فإن الصراع مبدأ حياة ووجود، بل فعل حياة ووجود، حيثُ لا يمكن تحقيق استمرارية الحياة وقيمها ومثلها العليا، من دون صراع لانتصارها. وليس شرطاً أن يكون العنف سلاح الانتصار على قوى الشرّ والدمار، كما في كُلّ صراع وحشي، بل سلاح «الحكمة» سمة الإنسان الأولى، التي أضاءت تلك الحضارة الإنسانية الكبرى، «الحكمة» السورية التي اقتضت أن تكون القوة والعمل البطولي (مبدأ التضحية الفردية والبطولة الاجتماعية) ـ بمعنى مواجهة الموت بالموت ـ في الحالات الحاسمة الكبرى هي الحلّ الفاصل من أجل حفظ الحياة الإنسانية وحقها في الوجود والنمو والاستمرار. وهنا، برزت، ولأول مرة في التاريخ، فكرة «الإله الفادي» من أجل الإنسان، عندما سارت «إنانا»[٥] إلى الموت طوعاً واختياراً، حين كان موتها شرطاً لحياة شعبها، وحيث هبطت إلى العالم الأسفل ـ عالم الموت ـ «ثلاثة أيام بلياليها» «مشدودة إلى وتد»، لتقوم في اليوم الثالث، بعد أداء مهمة الفداء، وحيث الرقم ثلاثة، أصبح في ديانات الخصب السورية يعبر عن الثالوث الإلهي: إيل الإله الواحد، وألام الكبرى العذراء الأبدية، والابن الفادي أو الحبيب الفادي. إلى أن انتقلت فكرة الفداء إلى تموز أو «دوموزي»[٦] ليعلن فكرة «البطل المخلّص» بعد «الإله الفادي»، في أول ثورة فكرية وجدانية مخلّصة في التاريخ تنطلق هذه المرة بفعل الإنسان، من الموت باتجاه الحياة، حيثُ يقتحم الإنسان الموت إرادياً، على الرغم من معرفته للمصير الفردي القاتم في الموت وبشاعته، والذي يتلاشى أمام عظمة الهدف والغاية: حياة البشر والقيم الكبرى العادلة فيها، وكُلّ ما يمتُّ إلى استمراريتها بصلة.

وهكذا تمّ نقل مهمة الفداء من الإله الفادي إلى الإنسان الفادي ـ بطلاً مخلّصاً ـ

---

(٥) الأم الكبرى السومرية، ترادفها عشتار البابلية، عشتار الكنعانية. الفادية الأولى في التاريخ. هي العذراء الأبدية ورمز الأمومة الكونية في آن معاً.

(٦) من رموز حضارة وادي الرافدين. حبيب أنانا أو ابنها. كذلك بالنسبة إلى عشتار. من رموز ديانات الخصب السورية. ورد اسمه أيضاً في إثبات الملوك لعصور ما قبل التاريخ، من بني ثلاثة ملوك حكموا باد ـ بيترا بعد أن انتقلت الملوكية إليها من اريدو ولا يعلم هل أن دوموزي هنا هو تفسير دوموزي أو تموز، الإله الشهير. وهو هنا الملك الذي عُرف بأنّه كان راعياً. أحد ملوك سلالة الروكاء الأولى. أحد رموز الفداء في نصوص ما بعد التاريخ.

متناوباً الدور في فعل الفداء بينه وبين الإله الفادي في حفاظ واضح على جدليّة العلاقة في مهمة الخلاص للبشر بين القيم الإنسانية العادلة، وقيم الإله العادلة. إنانا، دوموزي، تموز، البعل، في النصوص القديمة؛ واليوم، مار جرجس والخضر، ملحمة قيمية مستمرة، قطباها عوامل الجدب والقحط، والجفاف والموت من جهة، وعوامل الحياة: الخصب والنمو والنظام والاستمرار من جهة أخرى، في صراع تتجلى فيه فكرة المخلص من تنين الدمار والشرّ والموت.

«كور» هو اسم ذلك التنين في النصوص السومرية، وهو اسم قوة الموت والظلام، يحاول مدّ نفوذه على العالم وإرجاع الحياة إلى موت، والحركة إلى سكون، والنور إلى ظلام. يظهر بعد فترة وجيزة من خلق العالم وتنظيمه، يندفع نحو العالم المنظم لتخريبه وللقضاء على حياة الإنسان. له رؤوس عدة، لكُلّ رأس قدرات هائلة تحاول نشر أذيتها في مجمل الوجود والحياة الإنسانية. في النصوص القديمة السومرية والبابلية والكنعانية، يعتبر «كور» تنيناً، وحشاً ظلامياً، ويمكن اعتباره من بقايا العالم المائي الأول، قبل التكوين، وقبل خلق العالم وتنظيمه، لذلك اسمه مقرون بالفناء والدمار والفوضى.

يتصف دمار التنين، بمظاهر انقضاضه على البشر والعالم، وهي تتصف بموجة ارتباك وفوضى في قوانين العالم ولحظة عدم توازن وتخلخل في منظومة عدله وقيمه. تحاول قوى التنين هنا، إعادة العالم إلى فوضاه الأولى، ولذلك يُرمز إلى التنين بأشكال شيطانية لا علاقة لها بالعالم الإنساني، أو الحيواني الذي نعرفه. وإذ ينقض على الإنسانية، يتصدى له بطل فادي، مخلّص يستشهد من أجل البشرية، أو يخلّصها ويستمر حياً، بقواه الذاتية (القيامة) بعد أن يعيد الحياة الإنسانية إلى ما يجب أن تقوم عليه بقيم الإنسان وقيم الآلهة في معنى التوازن والنظام.

النصوص القديمة في الهلال الخصيب، وما رافقها من أعمال تشكيلية، عبّرت في مضمونها عن فكرة واحدة في جوهرها: الخصب والفداء، والخلاص الذي لا يرويه إلا الصراع لتجويد الحياة وتحسينها، وفي قمة الصراع: الفداء، الموت الإرادي من أجل انتصار الحياة وما تمثله من قيم جميلة أمام عدو الحياة العامل على تدميرها. ولأول مرة في التاريخ الوجداني الإنساني يتوحد الميلاد بالفداء والخلاص، جوهراً وجودياً، ومرتكزاً أساساً في ديانات الخصب السورية في مواجهة الفكرة القاتمة عن الموت والنهاية الفردية المحتومة. يرتقي مفهوم الموت إلى سوية الميلاد إياها: الموت الإرادي الذي يغدو موقفاً/ ورسالة تفضي إلى نتائج عامة وأهم من الموت نفسه بالمعنى الاعتيادي للموت. بل ويغدو الموت ثمناً زهيداً أمام الرسالة الكبرى، والتي هي التضحية المخلّصة (بالإله) من أجل الجماعة الإنسانية، ثُمّ البطل المخلّص، الإنسان الفادي.

«من مات في معركة فهو مبارك». هكذا تُعّرف نصوص وادي الرافدين «الشهيد»، في إبرازٍ لركنين أساسيين في عمارة الحضارة الإنسانية، «البطولة والمعرفة». لم يبق أمام غلغامش إلا تفسير واحد للإجابة عن أسئلة الموت والحياة، هو البدائل التي تحمل مدلولات وجدانية كبرى يتوصل معها إلى عقلانية الخلود: بقاء الجماعة الإنسانية واستمرارها من دون خوف ورهبة من ديمومة أمن وسلام وبقاء الفرد فيها، أنموذجاً بطولياً مخلّصاً واسماً رمزاً للمواقف الكبرى التالية، حيثُ يتماثل به أبطال قادمون. الخلود بالذكر البطولي افتداءً للجماعة، هو خيار إنسان الهلال الخصيب، وليس الذرية والأولاد، فالتاريخ يذكر أن غلغامش كان لديه أولاد وأحدهم حكم الوركاء في سلالة الوركاء الأولى وهو الملك «أور ـ ننكال». أن إنسان هذه الحضارة استنبط فكره للخلود (بقاء الجماعة والفعل البطولي المخلص)، من دون أن يرافق ذلك بقاء فردي، شخصي دائم في الحياة، أو نكران للموت الفردي، وإنَّما الموت هنا أصبح وسيلة للحياة بمعناها الحضاري. وهذا ما طبقه غلغامش إذ تبقى أوروك هي البقاء المستمر للعمل البطولي وهدفه: النمو والتقدم.

على الرغم من هالة الوجدان والخيال المتداخلة في حوار العقل، نحن هنا، أمام موضوعات حقيقية في الوجود، وإن التصوير الذي نقرأه فيها، ليس مجرد سرد لقصة رمزية، بل هو تأسيس للاتجاه الأخلاقي والعملي في الحياة، قيمياً وتطبيقياً لمصلحة الإنسان ومصيره، انطلاقاً من الأسئلة الأولى التي لا تزال مستمرة إلى اليوم، وهي المضامين القيمية لوجود الإنسان.

وإذ يركّز تراثنا الفكري القديم على المضمون القيمي لمبدأ الصراع، من أجل المعرفة والحق والعدل والحرية وكُلّ مقومات حقوق الإنسان، وتجدد هذا الصراع في دورة لا نهاية لها، فإن أهمية البطل المصارع في تلك النصوص أنّه قاتل تنين فساد وشرّ وفوضى ودمار، يصارع في صميم الحياة وليس خارجها، من أجل الحياة الإنسانية، وحيثُ إنَّ «المدينة» ممثلة لحياة الجماعة، هي نقطة العودة التي تنتهي عندها عملية الصراع، باعتبارها المكان الطبيعي ـ نموذج الحضارة الإنسانية ـ لحياة الجماعة وعمرانها ونموها واستمرارها، وممارسة الفعاليات اليومية والمستقبلية بشرائعها ونظمها وقوانينها وابتكاراتها وإبداعاتها.

من هنا كان خيار ممارسة البطولة لدى إنسان الهلال الخصيب خيار حياة وعمران وتقدم، إزاء خوض الصراع، بين إرادة الإنسان بتشبثها بالحياة الفردية، وبين تلك الحقيقة البديهية بالنسبة إلى العقل والمنطق في مسألة الموت والحياة: تتجلى مجموعة أسئلة تتناوب غلغامش في كُلّ وحدة من وحدات الملحمة، فيتساءل عما ينبغي أن يسلك الفرد في الحياة: أينبذها ويفر منها، ويفنى فيها متناسياً متغافلاً غارقاً

في نسيانه؟ أم يسلك طريق اللذة والتنعم بها بحسب نصيحة «صاحبة الحانة»، ومبدأها في الحياة؟ أم يقبل تحدي قانون الطبيعة ويذعن لما ليس منه بُدٌّ، فيضبط زمام النفس ويختار المواجهة وتخليد البشر والفرد في آن معاً، إحقاقاً لمبدأ المساواة التي كان يريدها لجميع البشر في أن يحيوا بسلام وعدل بلا خوف ولا رهبة؟ عقلانية الخيار، كانت حياة الجماعة وقيمها واستمرارها متجاوزاً موت الفرد، وموت الجماعة الكامن في إشكالية اللامساواة. غلغامش يرفض اللامساواة، بل يرفض النصيحة بالتمتع بالملذات أو الهروب أو النسيان. خياره المواجهة والبطولة. هذا الخيار المنبثق من منظومة أخلاقية تميزت بها حضارة الهلال الخصيب، تناقض أفلاطون في قوله: «لكي نحقق خلاصنا، يتعين أن ندير ظهورنا للطبيعة، وينبغي ألا نكون مقتنعين بعدم واقعيته، وأن نضع ثقتنا في عالم آخر يسمو فوق جميع التجارب الحسية ويقع وراء التغيير والزمن»(٧). هنا اغتراب عن العالم وعن المجتمع الإنساني في هروب إلى عالم آخر متصور، وهذا ما رفضه غلغامش قبل ألفي سنة من أفلاطون.

وإذا كانت أقدم قصة رمزية عن التنين «والبطل المخلص» أو «الفادي» قد بدأت في وادي الرافدين، فقد تواصلت في أرام وكنعان، في معتقدات الخصب السورية، وصولاً إلى المسيحية وريثة هذه الديانات، ومفهومها في الثورة والحياة الجديدة، مروراً بمراحل الصراع آلاماً وصلباً وفداءً وقيامة، واستمراراً في المعتقد: مار جرجس، النموذج المسيحي للبطل الكنعاني، «بطلاً مخلصاً صارعاً التنين متعدد الرؤوس، قاتلاً الحية الشريرة الطالعة من البحر ذات الرؤوس السبعة»(٨).

وفي أول «درب آلام» في التاريخ تعبر عن مفهوم الصراع من أجل المعرفة والعدل بالمعنى الفلسفي، يسير غلغامش مثقلاً بمأساة الإنسانية حول سؤال الحياة والموت، والعدل والمساواة، والمعرفة، قاصداً الجواب المعرفي الأول في تاريخ الإنسانية، محدداً أن طريق إدراك وتحقيق هذه القيم هي طريق آلام وأحزان، والمسيرة التي نواكبها في النصّ، تجعلنا نرافق غلغامش في درب آلامه لحظة بلحظة، حيثُ يكون منقلب التاريخ ولادة يوم جديد حيثُ «يشيع الضياء» وحيث «توهج الصبح» بإشراق معرفي يتم في قلب الظلمة الظالمة، وحيث يتم التذوق الإنساني لحقيقة

---

(٧) والتر كوفمان، «حقيقة الاغتراب،» في: ريتشارد شاخت، **الاغتراب**، ترجمة كامل يوسف حسين (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص ٢٥.

(٨) انظر: نصوص أوغاريت. غلغامش. الملك الخامس في سلالة الوركاء الأولى بحسب إثبات الملوك. أبوه كان الكاهن «للا» كاهن في مدينة الوركاء. هو بطل الملحمة الشهيرة ذات الأصول السومرية. هو الذي سور مدينة الوركاء. خلفه ابنه «أور ـ ننكال» في حكم الوركاء. استمرّ اسمه في الملحمة الشهيرة كأول نصّ ميثولوجي ـ أدبي فلسفي في التاريخ.

الصراع الذي يبلغ ذروته في هذا القسم من الملحمة «طريق الشمس»، حيثُ توحد الزمان والمكان والفعل: «هل بعد كُلّ هذه الآلام، عليّ أن أضع رأسي في قلب التراب؟ أريد أن أبصر بهاء الشمس، فحين يكون نور كاف ينسحب الظلام»[٩].

ولهذا المقطع قيمته الرمزية الثورية العالية المزدوجة: غاية بلوغ الحقيقة **أولاً**، وهو هدف معرفي فلسفي عالٍ، **وثانياً**، فعل اقتحام الظلام: الموت والسكون، المؤدي إلى الفعل، إلى الحياة حيثُ انتشار نور الشمس هنا يرتبط بالعدالة، حيثُ الشمس هي المبدأ والتطبيق في آن معاً، وهنا مغزيان متلاحمان، فعلاً وهدفاً، يحتفظ كُلّ منهما بقيمته كناتج لعملية الصراع ومكون لها في الوقت نفسه. وهو اختراق عقلي إرادي للزمان والمكان كعنصرين منفصلين، باتجاه توحدهما بمفهوم الثورة والصراع من أجل المعرفة والعدالة.

فكما أدرك إنساننا في تراثه الفكري مشكلة الأصل، أدرك مشكلة الغاية، غاية الوجود، وأدرك أن هناك نظاماً للعدل لا تراه العين، بل يدركه العقل والوجدان، ويبثانه في صميم الحياة الإنسانية. وقرن هذا النظام المحجوب عينياً، بالنظام المرئي، بما فيه من تعاقب الليل والنهار، والفصول والسنين، كما في تطبيق القيم الإنسانية. ونتيجة إلى إدراكه علاقة الشمس بنشاطات الحياة المختلفة، عدّها مصدراً للمعرفة الحقيقية، ورمزاً للعدالة، ومن هنا ارتبطت العدالة بالنور، بمعنى أنها ارتبطت بالمعرفة. لذلك، فإله العدالة هو إله المعرفة، والعدالة والمعرفة، العدالة والحقيقة، هدفان يرتبطان بدرب الآلام ارتباطاً وثيقاً، وبخاصة أن المعرفة هنا ليست نسبية أو موقتة، بل مطلقة. والمعرفة الأخلاقية هنا ـ إرادة المسير في درب الآلام هذه ـ والتي تشتمل على معظم دائرة المعرفة، هي المصدر الأساسي لفكرة العدالة. حيثُ الأخلاق هنا قيمة مطلقة، وارتباط العدالة بالنظام هو إياه دور وارتباط الشمس بالنظام الكوني، لذا فكُلّ ما هو منظم هو عادل، وكُلّ ما هو غير منظم غير عادل، واتزان الكون في نظامه، في عدله، ضمن دائرة الحقيقة مبدأ ووجوداً.

عملية الصراع في «درب الآلام» التي خبرتها الذهنية السورية منذُ ما يقارب الستة ألاف عام مروراً بدرب آلام المسيح، هي فلسفة إيجابية تختزن مضامين قيمية معمقة في المعرفة والعدالة والحقيقة، وليست فلسفة فراغية سالبة، هي شحنة رموز تدعو إلى البحث عميقاً عما هو حقيقي وواقعي وعادل ومتوازن مع مدلولات وقيم الحياة الإنسانية.

---

(٩) ملحمة غلغامش.

في **ملحمة غلغامش**، وتحديداً في جزئها المتعلق برحلة الصراع إلى غابة الأرز في لبنان حيثُ يختبئ الوحش «خمبابا» عدو العدالة وعنوان الظلم والظلامية يرهب البشر هناك ويخيفهم، قرّر غلغامش مواجهته ليكون شهيداً في مبارزته وقتله. لأول مرة يظهر مفهوم الشهيد أو «الاستشهادي» في هذه الملحمة، حيث قرار غلغامش بالاستشهاد كان قراراً حراً واعياً، وتميز هنا هذا المفهوم للموت الإرادي عن الموت العادي. وأضحت التضحية الفردية والبطولة الاجتماعية نموذجاً مهماً في مسألة البعد الذاتي لممارسة عملية الصراع ضدّ خمبابا (اللامساواة) بين أوروك وغابة الأرز، وغابة الأرز وأوروك، في موضوع التضحية الفردية والبطولة الاجتماعية بمواجهة الموت بالموت.

حدثتنا نصوص الهلال الخصيب القديمة عن الموت بما شكله من أهمية كبرى لفكرة مركزية في تأسيس العديد من التصورات الفكرية والأخلاقية، فإذا كان الموت بالمعنى العضوي هو توقف معالم الحياة في الجسم الطبيعي من حركة ونمو، بما يرافق الموت من أثار مدمّرة لثنائية الوجود الإنساني (المادية الروحية)، فإن هذه النصوص لم تحدثنا عن عودة حقيقية للأموات، بل فقط عن عودة ميثولوجية كما في لقاء غلغامش بروح «إنكيدو» وفي حالة حلم لا أكثر. وليس هناك ما يفضي إلى مصير الروح بعد الموت. إذ لا حياة أخرى. ليس هناك جنة ولا نار في الفكر الدينيّ في وادي الرافدين، فالموت هو الموت، لا خلود، ولا جنة ولا جحيم فيه. الروح تبقى أسيرة في العالم الأسفل إلى الأبد، والجسد يبلى في القبر ويتحول إلى تراب.

أما عدم وجود الثواب والعقاب بعد الموت، فلا يعني عدم وجودهما في الحياة. الثواب والعقاب يتمّان في الحياة نفسها وهذه الفكرة موجودة لدى آلهة وادي الرافدين. الخطيئة السياسية والأخلاقية كانوا يسمّونها «إساءة» (في السومرية (Namtag))، أما الخطيئة الدينيّة فمعناها «الخطيئة» (se. bi. da) وهذا التصنيف من الواضح أنّه قد تمّ ارتكازاً إلى علاقة الإنسان بالإنسان وإلى علاقة الإنسان بالآلهة. حدود الحياة الفردية هو الموت. ليس في العالم الأسفل إلا آلهة الموت والأمراض والآلهة المخطئة المعاقبة. هو عالم «اللاعودة» لذا كان الموت هو النهاية. وما دامت الفكرة التي كوّنها عن الموت بهذه الظلامية، فهو لم يقف متشائماً أمام النهاية المحتومة للبشر، بل قدم لنا تصورين للموت نستطيع من خلالهما أن نستكشف ملامح «فلسفة الأمل الاجتماعي» التي جابه بها يأس الموت الفردي. وهذان التصوران يتجسدان في تقسيم الموت إلى «إرادي» و«لا إرادي»، بعد أن دفعته فكرته عن الموت، إلى نهج خاص من التفكير حيال الموت، ونقده في صميم معالجته للحياة. وغدا هذا الموت محط تساؤلات في إطار فكرة الخلود، وبُنيت عليه أفكار فلسفية كثيرة. أما مفهوم

الخلود هنا فهو يؤدي إلى معنيين: فهو كائن إما بالتغلب على الموت، أو بوجود حياة أخرى بعد الموت، وهذا ما لم يكن في سياق نهج التفكير الذي رأى أن الخلود يتحقق في الحياة نفسها، والحساب في الحياة نفسها كما الثواب والعقاب.

إن «فلسفة الأمل» تجد مداها حتّى في الموت اللاإرادي، فقد قتل إنساننا آلهته أكثر من مرة قبل عملية الخلق أو أثناءها، لا لتبيان خضوع الآلهة للمصير نفسه الذي ينتظره الإنسان، وإنّما لتوضيح عملية خلق الكون أو ظهور الآلهة ـ آلهة الفعل وخلق البشر، في مقابل آلهة السكون والعماء الأول ـ ولتبيان أن عملية الموت لآلهة السكون والعماء الأول، هي، حتّى على مستوى الآلهة، المقصد منها خير عميم بعد القضاء على شرّ جزئي، والعبرة نفسها تتحقق على مستوى البشر، فالموت، وإن عُدَّ شراً جزئياً، القصد منه هو الخير العميم، وذلك من باب تحقيق التوازن في الطبيعة. وإذ خطى إنساننا في وادي الرافدين خطوته الأولى نحو «فلسفة الأمل» منزلاً أفكاره عن الموت من عليائها الإلهي إلى الواقع الإنساني، طارحاً موضوع الثواب والعقاب في الحياة نفسها، ما سيكون له تأثير في نقل أنموذج الحياة إلى عالم الأحياء فقط، جاعلة من الموت وجهاً آخر للحياة، في الحياة نفسها. أما الموت الإرادي، فهو النهاية التي يختارها الإنسان بنفسه بسبب اتّخاذه موقفاً يقترن بعمل يفضي إلى احتمال الموت الذي لا يأبه به، على الرغم من قساوته على الفرد، في سبيل تحقيق هدف أهم من الموت نفسه بدافع التضحية، من أجل الجماعة ورغبة في تخليد الذكر شرفاً في فداء هذه الجماعة وقيمها، ما يحوّل موت الفرد هذه المرة وبصفته الإرادية رمزاً اجتماعياً وتاريخياً حالماً قام بفعل البطولة والفداء، سواء مات أو بقي على قيد الحياة. ومن هنا ارتبط معنى «البطولة» بالموت الإرادي، ففكرة الفداء والبطل المخلص حفلت بها نصوص الهلال الخصيب القديمة جميعها وغدت عنواناً لمكتنزاتها القيمية، بدءاً من أعمال إله الحكمة في قتل الإله المتسلط، وصولاً إلى أعمال البطولة التي قام بها إيل/ مردوخ لقتل آلهة السكون والجمود من أجل الآلهة الفتية، وتقدم الحياة واستمرارها، إلى البطل الحيّ المخلّص، أو أوتنابشتيم أوتراحسس، إلى غلغامش مروراً بإنانا ودوموزي وتموز.

في مواجهة القضايا الكبرى التي تهدد مصير الإنسان، استنبط إنساننا الفعل البطولي المخلِّص بالموت الإرادي. «من مات في معركة فهو مبارك»، هكذا تُعرِّف نصوص وادي الرافدين «الشهيد». لم يبق لغلغامش في مواجهة إشكالية الموت الفردي وإشكالية مواجهة «خمبابا»، مخلوق أنليل، الذي يمثل عدواً للإله شمس إله الضوء ـ المعرفة والعدالة، (وهو كائن شيطاني ظلامي)، والذي كان قتله ترميزاً لمحاربة الشرّ في الأرض، وكذلك في مواجهته لإشكالية الموت المحتوم للفرد، لم يكن أمام

غلغامش إلا إيجاد البدائل التي تحمل مدلولات قيمية كبرى يتوصل معها إلى فعل العقل في مفهوم الخلود الإنساني الذي يمكن أن يتجلّى في: بقاء الجماعة الإنسانية واستمرارها واستقرارها بعدلٍ ومساواة آمنه بلا رعب ولا خوف، بل بسلام وارتقاء، واستمرار الفرد فيها اسماً بطولياً مخلّصاً يبقى ذكره في الأجيال القادمة. هكذا استنبط إنسان هذه الحضارة فكره للخلود (بقاء الجماعة، والفعل البطولي المخلّص)، من دون أن يرافق ذلك بقاء فردي دائم في الحياة، أو نكران للموت الفردي وهذا ما طبقه غلغامش في إعلانه عن فعل البطولة الذي يخلّد الفرد في بقاء الجماعة، ومعنى فعل البطولة حيثُ الخلود بالبطولة وليس بالذرية والأولاد (علماً أن غلغامش كان له ابن حكم من بعده في الوركاء في سلالتها الأولى)، وإنّما الخلود هنا اجتماعي وليس فردي، والبطولة هنا اجتماعية، وليست فردية، التضحية هنا هي فردية. وفي حين أن غلغامش هنا، لم يكن أول بطل من البشر، فإنه أول بطل مأساوي نعلم عنه شيئاً. إن فعل البطولة الذي قام به (الانتصار وتحقيق أهداف معينة ذات غاية إنسانية ـ اجتماعية كبرى)، كان هاجس غلغامش قبل أن يقصد أوتنابشتيم، حين لم يكن الموت الفردي يعني له شيئاً، فهو قد قبل مقاييس البطولة المعهودة ومقاييس حضارته المعهودة. الموت لا بُدَّ منه ومن العبث التخوف منه، فإذا كان للمرء أن يموت، فليمت ميتة الفخار في مقاتلة خصم جدير به، لكي يبقى اسمه في الأجيال التالية، وتبقى وتستمر الأهداف التي حققها بموته الفردي من أجل حياة عامة «وإذا سقطت مضرجاً أكون قد بنيت أساساً للبقاء فيقولون عنّي: مثل غلغامش وهو يصارع خمبابا الرهيب».

إن النموذج البطولي الأكثر تمثيلاً للإنسان في سعيه إلى الحياة والبطولة من أجل الحياة وقيمها (الحقّ، العدل، المساواة)، وهو سعي من شأن سيرته أن تشكل مأساة تحقيق. قال أنكيدو لغلغامش عندما كان على فراش المرض: «يا صاحبي لقد حلت بي اللعنة، فلن أموت ميتة رجل سقط في ميدان الوغى».

في نصوصنا القديمة تقدم المظهر الملحمي على الأسطوري والخرافي في تقديم موضوع الخلود كموضوع أساسي مباشر، وتوسل البرهان بأسلوب مؤثر على حتمية الموت المقبل على البشر حتّى بالنسبة إلى بطل مثل غلغامش، ولو كان ثلثاه إله، مع ذلك يسيطر غلغامش الإنسان.

إزاء هذا الصراع بين إرادة الإنسان بتشبثها بالحياة، وبين تلك الحقيقة البديهية بالنسبة إلى العقل والمنطق، هناك مجموعة أسئلة هي ذاتها التي حملها غلغامش، غلغامش الذي لا يوافق على اللامساواة، ولا يمكن أن يقبل بالهروب والنسيان والانصراف إلى الملذات بدل المواجهة، لا يقبل إلا بالحلول المفضية إلى الحياة الجماعية

وقيمها وسلامة استقرارها واستمرار الفرد فيها، ذكراً خالداً متجاوزاً بذلك، العمل البطولي، موت الفرد وموت الجماعة في آن معاً.

البطولة بنظر إنسان الهلال الخصيب القديم عمل خارق وموقف مفارق يخص الآلهة والبشر على حدّ سواء، فضلاً عن أن البطولة لا يمكن أن تقوم إلا لدى داعية إلى العزّ والمجد أو العزّ الذي يكون للجماعة، في أغلب الأحيان، بعد أن يعجز عن تحقيقه كفعل وموقف، ربما عدد من الآلهة أو البشر.

وإذ يعلن غلغامش نيله البطولة إذا قتل خمبابا، والخلود إذا استشهد «أن حياتي وهج يشتعل وهو خلق عملتني الآلهة به، وجبلت عليه طينتي» (حين ذهابه لعملية قتل خمبابا)، و«أنكيدو» صديق غلغامش، يعبر في النصّ عن الرؤية إياها تجاه ميتة الأبطال عندما أصيب بمرض أقعدهُ ومات حزيناً، لأنه لم يمت «ميتة الأبطال في قتال مبارك»، والقتال المبارك في التراث الفكري السوري القديم هو الذي تكون غايته مصلحة الجماعة الإنسانية وارتقائها. وهو ما يذكرنا هنا بقول أفيكتات تلميذ زينون الرواقي: «ماذا يطلب المرء أفضل من ميتة الأبطال؟» (الاتجاه النفسي إياه).

ولم تكن **ملحمة غلغامش** هي الوحيدة التي تضمنت النماذج الأولى في التاريخ في مفهوم الصراع من أجل المعرفة والتقدم وتطبيق القيم المتوافقة مع الطبيعة، بمعنى النظام، فغزارة النصوص التي طرحت موضوعات حية، شكّلت حركة تصاعدية من تقدم الفكر وتطوره على مستوى الإصلاح والتغيير كذلك. «حوار السيد والعبد» كان انتقاداً ساخراً ولاذعاً وعقلانياً لأوضاع سياسية واجتماعية ودينية. ونصّ «العدل الإلهي» بما تضمنه من خطوط واضحة لفلسفة الشكّ، وتفعيل دور العقل في النقد والأحكام المنطقية، وفي تفسير الأحداث والأشياء والأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة، هذا التطور في نهج التفكير الصراعي العملي هو ثورة مستمرة أسست للمنظومة الفلسفية بخطوطها الواضحة، والتي تشكلت عبر التلامذة الإغريق لثقافة الهلال الخصيب (كطاليس وبيتاغور اللذين درسا في بابل وكنعان خطّ الفكر السوري)، حيثُ كان الهلال الخصيب مركزاً لتلقي الثقافة والعلم في الألف الثاني والأول (ق. م.) مثلما يعتبر كثيرون الغرب اليوم، وكذلك عبر التوسع السوري في البحر المتوسط، وبواسطة كهنة وكتّاب ومفكرين سوريين حاملين في مؤونتهم الفكرية والرياضية الأفكار الثورية المعرفية للعصر الأول، إضافة إلى نتائج تجارب بلادهم العملية الثورية في التأسيس للديمقراطية عبر أول برلمان التأم في التاريخ، من وادي الرافدين، إضافة إلى الفتح الثقافي العالمي: تعليم نظام الكتابة «الأبجدية»، وفي وجدانهم يحملون التجربة الفذة الأولى في الشعور القومي الذي خبروه في «أول حرب تحرير في التاريخ» أدت إلى تنامي الحياة الواحدة في البيئة الطبيعية الواحدة،

انتقالاً من دولة المدينة إلى دولة القطر الطبيعي، في حين كان الاتجاه إنسانياً عالمياً في مفهوم الحرية والعدالة التي تحفظ الحقوق والكرامة الإنسانية، وحق الحياة الحرة الكريمة، وتؤكد سعي الإنسان في سبيل التحرر من الخوف والحاجة والحرب، كما ورد في وثيقة المصلح الاجتماعي السومري أوروكاجينا. هذا الاتجاه الإنساني كان بذرة الفلسفة الرواقية التي أسسها زينون السوري في بلاد الإغريق (٣٢٢ق. م. ـ ٢٦٥ق. م.) حيثُ لم يعترف الرواقيون بالإطار الضيق الذي كان يطوق المدن اليونانية، وعدوا أنفسهم مواطنين عالميين، وإخواناً للبشر أجمعين، فمهدوا بذلك لبذر فكرة جديدة عن الحرية التي هي حقّ لجميع البشر. وعندما تكلم زينون عن فكرة الحب العالمي في صميم معنى فلسفته الأخلاقية الجديدة، التي شكلت ثورة في تاريخ الفلسفة عموماً، وفلسفة الأخلاق خصوصاً، فإنما كان يؤسس لمفهوم «العولمة» الحقيقية التي نبحث عنها اليوم ونفتقدها، في حين تعممها الدول المتسلطة لفظاً فارغاً من محتواه، بقصد استعماله عنواناً للهيمنة والاستعباد والسيطرة ومحق الحرية والكرامة الإنسانية.

إن فلسفة الصراع في تراثنا الفكري القديم عمقت التأكيد على مركزية الإنسان في الكون، وأججت القلق المعرفي فلسفياً من أجل الكشف والفهم، وحرّضت على التغلغل بالبصيرة، بالمعرفة ـ ونموذجها الحقيقة ـ من ظواهر الأشياء إلى عمقها، وتعريتها من الخارج والداخل بلا خوف، ولو كان ذلك بفضح «الآلهة»، وفضح الذات. الصراع هو فعل ثورة على ما هو خاطئ ـ مهيمن وسائد ـ للتخلص من عبوديتنا لأمواتنا، ولجهلنا، ولذواتنا الفردية. وكما بدأت فلسفة الصراع هذه، في نصّ ميثولوجي مقاربة حوار العقل، واضعة الخطوط الأولى للمنظومة الفلسفية، فها هي في سياق فعل البنية الذهنية السورية، تؤسس لأول مفهوم للعولمة مع الرواقية، ليستكمل في أول حركة إنسانية في التاريخ: المسيحية.

مع المسيحية أكدت رسالة حضارة الهلال الخصيب ذاتها، كوريثة لمخزون ديانات الخصيب والفداء السورية، معلنة دين الإنسان لجميع شعوب الأرض، متجاوزة التعصب القومي والمحلي، ولأول مرّة تجد الإنسانية معنىً لها، كمصطلح بمفهوم جديد، يحمل مكتنزات الثقافة السورية العالمية الاتجاه، وفلسفتها الأخلاقية التي ألغت الفوارق بين القبائل والإثنيات المختلفة أمام جوهر الإخوة الإنسانية.

إن تجاوز المسيحية للجذور العرقية والقومية لمبدأ الإخوة الإنسانية، بمساواة وسلام وعدل، وعدم تفريقها بين الجنسين، وتكريم المرأة، عبر النماذج الإنسانية التي رافقت حياة المسيح بدءاً من الأم الكبرى ممثلة بالعذراء مريم (عليها السلام)، وصولاً إلى ثورة الوجدان في مريم المجدلية، لهو المبادرة الكونية الأولى في إطلاق حقوق

الإنسان بهذه المفاهيم الجديدة، في أول تجربة إنسانية وخطوة تاريخية على هذا المستوى. ومنذُ اضطهاد المسيح ورسالته الكونية من قبل اليهود، وحتى اليوم، لا يزال المسيحية في جوهرها، تواجه صراعاً ضدّ نقيضها اليهودية، والمسيحية المتصهينة ربيبة الخديعة اليهودية داخل الكنيسة، ولا تزال تمارس هذا الصراع صليباً دائماً ودرب آلام لم تنته بعد، حيثُ لم يكتفِ اليهود بعد بصلب المسيح وصلب أرض مولده وشعبه. ولا تزال المسيحية في جوهر رسالتها تكتنز رسالة الهلال الخصيب في الأخلاق وفي الدعوة إلى الفداء، تمثلاً بالمسيح الذي واجه إرادياً الموت من أجل قيم الحقّ والعدالة الإنسانيين، وفي قيامته، رمزاً وتمثلاً لقيامة شعبنا، وكُلّ الشعوب الواقعة تحت الظلم والقهر، انتصاراً للحق في مواجهة الباطل، وفي مواجهة المفهوم اليهودي حول «شعب الله المختار» وقواعده السلوكية الحاقدة، وممارسات عدم المساواة والحقد والعدوانية والتمييز العنصري. وإن تأسيس الحركة الصهيونية لتطبيق المفهوم التوراتي وإقامة دولة الباطل «إسرائيل»، وتشريع كُلّ المآثر اليهودية التي مورست خلال القرن العشرين وحتى اليوم في القسم الجنوبي الغربي للهلال الخصيب، شاهد على هذه البربرية، والعدوانية المنظمة، وشاهد على التناقض الجوهري بين المسيحية واليهودية.

في المسيحية أيضاً، كما في ديانات الخصب السورية، أصبح توحد الميلاد بالفداء والخلاص جوهراً وجودياً. مرة أخرى، لم تقف حضارة الهلال الخصيب أمام الفكرة القاتمة عن موت الفرد والنهاية الحتمية اللاإرادية للبشر، فالميلاد من العذرية الأبدية تلبية لإعجاز الحياة الإنسانية على الأرض، في جدلية الحياة والطبيعة، ارتأت مفهوماً آخر للموت يرتقي إلى سوية الميلاد إياها: الموت كوجه آخر للحياة. مرة أخرى في التاريخ، وأيضاً في الهلال الخصيب، يتجلى مفهوم الموت الإرادي/ البطولة الاجتماعية الذي يغدو موقفاً ورسالة تفضي إلى نتائج عامة أعمق وأهم من الموت نفسه، بالمعنى الاعتيادي الفردي للموت. بل ويغدو الموت ثمناً زهيداً أمام الرسالة الكبرى، والتي هي التضحية المخلصة (بالإله) من أجل الجماعة الإنسانية. فبعد أن سُجِّل أول نزول إرادي إلى العالم الأسفل واختيار للموت فداء للبشر، إذا كان شرطاً لخلاصهم، مع أنانا السومرية مشدودة إلى وتد، في عالم الموت، ثلاثة أيام بلياليها، وقد قامت في اليوم الثالث، سجّل كذلك اختيار آخر للموت فداءً لحياة الجماعة مع دوموزي السومري، ومن ثُمّ البابلي، كذلك البعل الكنعاني. وعلى الرغم من تبادل الأدوار بين أنانا وعشتار ودوموزي وتموز والبعل في عملية الفداء، فقد كانت هي الدلالة ذاتها والمهمة الحاسمة ذاتها لتغيير التاريخ في اللحظات الحاسمة منه، بتألق رمز التضحية الفردية والبطولة الاجتماعية والفداء كقيمة في التاريخ الإنساني. وإذ ولد يسوع تجسيداً للولادة المستحيلة من العذرية الأبدية في بيئة تتدفق في داخلها

بذاكرة ثقافة الفداء صراعاً وتضحية وانبعاثاً، فإن درب آلامه لم تكن غريبة عن هذه الثقافة وصولاً إلى صلبه على خشبة الصليب، وتحقيقاً في معنى قيامته، وخشبة الصليب مسيحياً، ليست خشباً عادياً، بل هي شجرة مقدسة ترمز إلى شجرة المعرفة. وقد خلّدت الأعمال التشكيلية في وادي الرافدين وكنعان وآرام فكرة «شجرة الحياة»، «الشجرة المقدسة» أو «شجرة المعرفة» بأبلغ ما يمكن لأي كلام أن يفعل. ها هي عشتار في إحدى هذه الأعمال الفنية، في نقش كنعاني يعود إلى الألف الثاني ق. م.، ها هي كاهنة تتعبد أمام محراب، تحت شجرة زيتون مورقة، وفوق الشجرة يشرق القمر الهلال، روح الإخصاب والعذرية الكونية، وفق المعتقد العشتاري، حيثُ الحياة على الأرض تقوم بنسمة من روح الأم الكبرى، مثبتة بذلك أمومتها للبشر. وفي ختم بابلي (يعود إلى الألف الثالثة ق. م.) يمثل عشتار وابنها الطفل الإلهي في حضنها، وخلفهما الشجرة المقدسة (نخلة)، ويبدو تموز في حضنها منطلقاً إلى الإمام وكأنه انبثق منها ومن الشجرة المقدسة في آن معاً. والشجرة المقدسة اختصرت في نقوش أخرى إلى صليب يعلوه هلال. والصليب كان الأكثر ارتباطا بالأم الكبرى. فخطّا الصليب المتقاطعان يرمزان إلى الامتداد اللانهائي للحضور الإلهي، حيثُ نقطة الالتقاء في الوسط نقطة الكون، شمولية الأم الكبرى. ثُمّ صورت فكرة الخصب والفداء على شكل صليب، وأحياناً أخرى، كانت شارة عشتار عبارة عن دائرة مكتملة يعلوها صليب كشكل مختصر للشجرة المقدسة، شجرة المعرفة. وقد اعتمدت المسيحية هذه الرموز، حيثُ نعثر على الهلال الذي يرتكز في وسط عمود أو صليب في بعض الكنائس اليونانية الأولى، والصليب كاصطلاح دال على الخصب والفداء، هو في مفهوم ديانات الفداء السورية، الغصنان الأولان اللذان يختصران شجرة الحياة ودرب آلامها، ومنطلق قوة الفعل الكونية ميلاداً وفداءً، في تصورها الأولي. هذا الصليب هو إياه الذي حمله يسوع في درب آلامه وصولاً إلى الجلجلة حيثُ عُلق عليه: فداءً للبشر وموقفاً ورسالة، مختاراً الطريق الذي عرف به قبل حدوثه، مقدماً جسده فعلاً للخلاص، وها هو إياه قبل ولادته المكانية والزمانية يتكشف في الفكر السوري فادياً ومخلصاً، في **ملاحم أوغاريت**، قاتلاً التنين المتعدد الرؤوس في صورة تبلغ شكلها الأكمل في الرسالة التي يطلقها بعل بعد قتل التنين، إلى المؤمنين به: «اذهبوا وبشروا وانشروا السلام في الأرض»[١٠]. وبعد ولادته:

---

(١٠) «أول حرب تحرير في التاريخ» بعثت الروح القومية عند السومريين وكان من مظاهرها تدوين تراث نظام الحكم المتطاول في البلاد وسلالاتها الحاكمة الكثيرة. بطلها هو المحرر الملك اوتو ـ جيكال السومري الذي طرد الكوتيين الذين لعبوا بـ «ثعابين الجبال القارصة وأعداء الآلهة» الذين كانوا يقيمون في الجبال الشرقية «زاغروس» المتاخمة لإيران ولم يخلفوا وثائق مدونة بلغتهم. حكم أوتوجيكال أول قائد لأول حرب تحرير في التاريخ من عام ٢١٢٠ ـ ٢١١٤ق. م.

«الخبز الذي سأعطيه هو جسدي لأجل حياة العالم»[١١]. مقابل هذا الاتجاه الفلسفي، الإنساني الرسالة، والذي توهج لثلاثة ألاف عام ق. م.، جاء نهج «يهوه»، بنية ذهنية سالبة، إلهاً متسلطاً باغياً ظالماً مدمراً، بغرض الصراع الإنساني ـ الإنساني، لأجل طوطميته ولأجل جماعة من البشر تتفق في ما بينها على اللا إتفاق مع الإنسانية وقيمها العليا الجميلة وبحيث نصّب نفسه قائداً لعمليات الإبادة والقتل الجماعي والتدمير، «مخلصاً لشعبه المختار»، مقابل تدمير ومحق الإنسانية بقتل قيم الحقّ والعدل الإنسانيين. وهكذا ناقض النهج اليهودي التوراتي في مفهوم الصراع، النهج التراثي الفكري للهلال الخصيب وغاياته الإنسانية النبيلة الكبرى. وها هو «يهوه» اليوم يسير مع «شعبه المختار» في أفظع نهج تدميري عرفه التاريخ من أجل السيطرة والتدمير والتسلط: «أن الربّ إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الربّ»[١٢]. مع اليهودية التوراتية التلمودية منشئة دولة «إسرائيل» في القرن العشرين ب. م. غدت فكرة الإله الحاقد المتعالي نتيجة لذهنية جماعة من البشر، متحجرة، متباعدة مع واقع الحياة الإنسانية ومصلحتها ومصيرها. مزورة وهادمة وقاتلة للقيم الإنسانية الجميلة في الحياة، ومناقضة للاتجاه السوري الرسولي للإنسانية المتمثل في الذهنية التي أنتجت «إيل» «أبو آدم» «الرمانو» بالسومرية أي أبو البشر، الرحمن، وفي افتداء البشرية من أجل انتصار قيم الحقّ والعدل والمساواة في أول وثيقة حقوق إنسان في التاريخ منذُ ٣٠٠٠ عام ق. م. وبذلك، تأسس في القرن العشرين ب. م. وبالاعتداء اليهودي على وجودنا في أرضنا، تأسس لمرحلة جديدة في الصراع تكلفت بخوضها حضارة الهلال الخصيب، استمراراً وتطبيقاً لنهجها الصراعي. أنّه تنين المفاسد والدمار والموت القديم الجديد، الذي مهمته القضاء على أُسس الثقافة الإنسانية وحضارتها.

ثالثاً: راهنية الصراع والبطل المخلص

ففي مطلع القرن العشرين، وبعد خروجها من هيمنة الدولة العثمانية لأربعة قرون متتالية من الظلم والقهر والتخلف، لم تتمكن سوريا من الوقوف أمام غدر الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى، والذي تكشف بالاحتلالين الجديدين الفرنسي والبريطاني، الذين اعتبرا سوريا، تركة الدولة العثمانية المنهزمة، ملكاً لهما. لم تتمكن سوريا في معركتها الجديدة، مع المحتلين الجدد، من إبطال مفعول اتفاقيات سياسية دولية أبرمت خلسة عنها وطالت حقوقها في الصميم، فبموجب اتفاقية

(١١) انظر: **الكتاب المقدس**، «إنجيل يوحنا،» الأصحاح ٦، الآيات ٤٨ ـ ٥١.

(١٢) المصدر نفسه، «سفر التثنية،» الأصحاح ٩، الآية ٣.

سايكس ـ بيكو الفرنسية ـ البريطانية، تمّ تقسيمها إلى منطقتي نفوذ **إحداها**، بريطانية تشمل فلسطين ـ ومن ضمنها شرق الأردن الذي لم يكن له نطاق يحده ـ وما بين النهرين «العراق»؛ و**الثانية**، فرنسية، وتشمل الشام التي كان يدخل من ضمنها جبل لبنان ـ وأصبحت كُلّ دولة تعدّ نفسها مالكة للقسم السوري الذي نصَّت عليه الاتفاقية، في تجاهل تام لأهل البلاد أصحاب الشأن فيها، حقوقياً وسياسياً. وتبعاً لهذا التقسيم، تحددت قضايا ما بين النهرين وفلسطين وشرق الأردن والشام ولبنان، وبالتالي تحدد العمل السياسي في كُلّ منها، كما تحدد عمل كُلّ فئة في منطقتها، وانفرد كُلّ جزء بمهامه وشؤونه، فتجزأت قوى الأمة، وأصبحت عاجزة عن الوقوف أمام المقررات التي نالت من حقها، ولم تستطع كذلك منع خسارة كيليكيا ثُمّ الإسكندرون، وقد اغتيلت فلسطين بالمقررات الجائرة استناداً إلى وعد بريطانيا بتمكين اليهود من إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وقد اجتاحت الهجرة اليهودية المتزايدة المدن الفلسطينية وتمكنت منها استيطاناً، وقتلاً وإرهاباً بقيادة عصابات إرهابية يهودية تعمل برعاية وحماية بريطانية في قلب فلسطين.

كانت قواعد العمل القومي في كُلّ سوريا قواعد فاسدة لا تمكن الأمة السورية من حماية حقوقها أو الدفاع عنها، فشؤون فلسطين محصورة بالفئات السياسية المحلية، وشؤون أهل الشام على أهل الشام وكذلك شؤون لبنان، وبقية أجزاء سوريا. حالة من الشلل والتخبط والفوضى تلف سوريا وتطال وحدة حياتها ووجودها. ويشهد أنطون سعادة، بعين سوريا الحرة كُلّ ما كان يجري لبلاده وشعبه، وهو من الذي عملوا واستشهدوا من أجل نهضة سوريا، فيفضح خطة الانتداب البريطاني في فلسطين، مستشرفاً الخطر اليهودي على كامل وجودنا ومصيرنا القوميين، متنبئاً بمصير سوريا القاتم إذا لم تقم فيها حركة نظامية تتناول القومية بأسرها وتواجه الصهيونية وخطتها النظامية الدقيقة. ويوضح سعادة في **مجلة المجلة**[١٣]، أن «الحركة الصهيونية تقوم على خطة نظامية دقيقة إذا لم تقم في وجهها حركة نظامية أخرى معاكسة لها كان نصيبها النجاح»[١٤]. وإن محاربة الحركة الصهيونية لا يجب أن تقتصر على فلسطين التي هي جزء من سوريا بل يجب أن تتناول سوريا كلها التي يجب أن لا يحول دون تضامنها الفعلي، لحفظ كيانها ونيل استقلالها التام، التقسيم السياسي الذي وضعه سياسيو أوروبا وفقاً لأغراض ومقاصد دولهم التي أخفتها تحت أسماء الوصاية والانتداب. وهو الذي شهد إعلان وحدة البلاد السورية في المؤتمر السوري

---

(١٣) **مجلة المجلة** (شباط/ فبراير ١٩٢٥).

(١٤) أنيس فريحة، **ملاحم وأساطير من أوغاريت: نص صراع «بعل وموت»** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٨٠).

الكبير في دمشق عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٠ ومعركة ميسلون المشرفة التي عبّرت عن إرادة الأمة السورية الحرة في مواجهة فرنسة المحتلة، وكيف داست فرنسا إرادة السوريين. وقد مثلت معركة ميسلون له بدء التاريخ الحديث للأمة السورية لأنها مثلت مبدأ جديداً في حياة سورية، الجديدة المتنبهة، المواجهة المصارعة لما يخطّط لها. فإذا كانت ميسلون بدء تاريخ الأمة السورية الحديث لا نهايته، فهل ما زلنا نتابع كتابة هذا التاريخ على طريقة ميسلون؟ الأحداث الكبرى في تاريخ الأمة علمتنا أن لغة القوة القول الفصل، هي التطبيق العملي لاسترداد حقنا. ويسأل سعادة: «ماذا نفعل اليوم من أجل هذا التاريخ؟ ونحن دون سوانا بإمكاننا تحقيق إرادتنا وتحقيق كيان أمتنا: هذا هو بدء التاريخ!»[١٥].

وقد وضع سعادة قواعد وأسساً ننطلق منها في كُلّ الاتجاهات، وعلى كُلّ المستويات السياسية الثقافية والقتالية، مناقضاً في تعبيره، من خلال قواعده هذه، وهي ما تمثله مبادئه من إرادة الأمة السورية الحرة، مناقضاً لسياسة الخصوصيات والمنافع الفردية والتخلي عن تطبيق بديهيات المقاومة القتالية لغطرسة القوة التي تعبث بأطفالنا ونسائنا وشبابنا وشيوخنا، على مرأى من العالم ومنظماته الدولية والحكومية وغير الحكومية، التي تدعي الإنسانية والعدل والمساواة والتمسك بقوانين إنسانية عامة، في أفظع زيف عرفه التاريخ.

لذلك وضع سعادة، مستشرفاً الآتي: وضع أسس التغيير وقوانين الصراع في معادلة ثورية قومية تتصدى لعوامل التجزئة والتفكك الداخليين، وتصارع الاستيطان اليهودي بكل مظاهره، بعد إعلانه أن محق تلك الدولة الغريبة لا يتم إلا بالبطولة المؤمنة المؤيدة بصحة العقيدة، وكان أول من دعا في مطلع القرن العشرين إلى العمل الاستشهادي في مواجهة المخطط الصهيوني الذي كان قد بدأ زحفه على سوريا معلناً أن الشيء الحقيقي الذي يخيف اليهود هو الموت: «ولو وُجد في سورية رجل فدائي يضحي بنفسه في سبيل وطنه، ويقتل بلفور في ذلك الوقت لكانت تغيرت القضية السورية من الوجهة الصهيونية تغيراً مدهشاً، فإن الصهيونيين عندما يرون أن واعدهم بفلسطين، قد لقي حتفه يعلمون أنهم بمواجهة ثورة حقيقية على الرغم من أعمالهم غير المشروعة، ويوقنون أن سورية مستعدة للمحافظة على كُلّ شبر من أرضها بكل ما لها من القوى وما لديها من الأسلحة العصرية والقديمة»[١٦]. ولقد

---

(١٥) أنطون سعادة، **مختارات في المسألة الفلسطينية**، ط ٥ (بيروت: دار فكر للأبحاث والنشر، ١٩٩١)، ص ١٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٦.

دعا إلى معركة التصدي للذين أضاعوا فلسطين. وبعد أن حمّل المسؤولية جميع من كانوا مسؤولين عن الكارثة، ركّز على مفصلين: النفط في خدمة معركة التحرير، والكفاح المسلح والعمل الاستشهادي طريقاً وحيداً للتحرير. وكانت هاتان المقولتان أخطر ما يطرح في أواخر الأربعينيات بعد قيام «إسرائيل»، معلناً في الوقت عينه «أن كُلّ ما فينا هو من الأمة، الدماء التي تجري في عروقنا عينها ليست ملكاً لنا، هي وديعة الأمة فينا، متى طلبتها وجدتها. لذلك نحن حركة صراع، حركة صراع بالمبادئ التي نحمل، وقتال بالدماء الحارة التي تجري في عروقنا»[١٧].

اليوم، وفي غليان التطورات المتدافعة على المستوى القومي في صراعنا مع «إسرائيل»، ومفاعيل هذا الصراع على المستوى الدولي، ما زالت تتأكد يوماً بعد يوم حاجتنا إلى القوة قولاً فصلاً، في إثبات الحقّ القومي، ويتأكد لنا ما قاله سعادة لوزير الخارجية البريطاني لويد جورج سنة ١٩٣١ في رسالة تحذيرية له من نتائج التآمر على فلسطين: «إن أموراً عظيمة ـ أموراً عظيمة جداً ستترتب على هذه المحاولة الأثيمة التي لم يعرف التاريخ محاولة أخرى تضاهيها في الإثم. وإني أطمئنكم بأن نتائجها لا تقتصر على فلسطين، بل ستتناول العالم أجمع، وإن عظتها البالغة لن تكون لبني إسرائيل فقط، بل لجميع بني الإنسان ومن يعش يرى»[١٨].

هكذا استشرف سعادة منذُ مطلع العشرينيات خطورة الغزو الصهيوني لبلادنا، داعياً إلى اعتماد خطة قومية نظامية لمواجهة الخطة الصهيونية، وإلى ضرورة وضع المسألة الفلسطينية في إطارها القومي لتحصينها ضدّ السياسات الخصوصية والكيانية، ولحمايتها من السياسيين الرجعيين والطائفيين الذين قادوا الأمة إلى الكارثة، داعياً في الوقت نفسه إلى الكفاح المسلح، وإلى استعمال سلاحين استراتيجيين في المقاومة والتحرير: النفط كسلاح استراتيجي لم يستعمل أبداً، والعمل الاستشهادي كسلاح استراتيجي آخر، هو من مكتنزات النفسية السورية الأساسية لتغيير موازين القوى، معلناً للأمة السورية أن تستعد «لدفع كُلّ اعتداء بكل ما لديها من الوسائل والممكنات». وقد أتى اليوم الذي تأكدنا فيه أن أجسادنا ودماءنا هي أكثر هذه الوسائل والممكنات فعلاً في زمن الصراع الاستثنائي في التاريخ. «نحن لا نقوم بالأعمال الجنونية لأننا لا ندعو إلى الانتحار الوطني»[١٩]، فما حدث عام ١٩٢٢ لم يكن عملاً جنونياً قط، بل كان في غاية الحكمة وقد يوجد كثيرون يفسرون الحكمة

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٣١.

بالجنون. وإن أحداث عام ١٩٢٢ أتت بما لم تأتِ به كُلّ المباحثات والاحتجاجات على الأمر المفعول من نتائج. هكذا أعلن سعادة منذُ مطلع العشرينيات: النفير والتعبئة العامة لإخراج قضية فلسطين من هزل الاعتباط إلى جدّ النضال المصمم، داعياً إلى بدء التاريخ بعزيمة تطلب الموت متى كان الموت طريقاً للحياة.

على المستوى القومي، وبعد مرور أكثر من نصف قرن على قيام «إسرائيل» في أرضنا، بالإرهاب الدولي المنظم، تتأكد استراتيجية الحرب الصهيونية في الهلال الخصيب بأنها حرب على الأمة السورية أكثر منها حرب على الأنظمة والحكومات. إنها حرب إبادة، تستهدف كُلّ مقومات الحياة في الهلال الخصيب وتقويض عوامل وحدته ونهضته، ولذلك نشهد حالة نموذجية من حالات الإبادة المنهجية في فلسطين، بحيث تتولى إسرائيل هناك الحرب بنفسها بالدعم الأمريكي الكامل، مثلما كان قيامها بالدعم البريطاني الكامل، ومثلما اصطنعت «مشروعيتها» على «مذهب» المنظمة الدولية التي تقر أحكامها وفقاً لفلسفة القوة. ولم تكن إسرائيل قد توانت عن الانقضاض على جزء من لبنان حتّى عاصمته بيروت عام ١٩٨٢، وستستمر الحروب الإسرائيلية بكامل مظاهرها وحججها على أمتنا في الهلال الخصيب، حرب إبادة بأساليب متنوعة في أفظع نموذج للإرهاب الدولي المنظم عرفه التاريخ ولو توقفت كُلّ حروب العالم! ما يزعج إسرائيل في الهلال الخصيب السوري، كُلّ شيء: كُلّ نبضة حياة فيها تقول يومياً للعالم إن ثمة شعباً حياً في هذه البقعة من الأرض. وما يشتعل رفضاً في نفوس السوريين إنهم لا يرتضون قبر التاريخ مكاناً لهم تحت الشمس، وإن سوريا وطنهم وأنهم أمة حية لها مثلها العليا وجديرة بالبقاء مستمدة نهضتها من تراثها الثقافي السياسي القومي.

تلك هي راهنية الصراع ضدّ تنين العصر القديم الجديد. اليوم، وشعبنا يحاول التصدي في إضاءات دفاعية له، عن وجوده، بمعرفة ثورية نضالية مصارعة، ترفض الأمر المفعول، وتصر على إقامة أوضاع بديلة صحيحة، يكون أساسها تحرير كامل أرضنا المحتلة بدءاً من فلسطين بكامل ترابها. وفي حين أن الخطة الصهيونية واجهتنا مجموعة كيانات مجزأة بحسب منهجية سايكس ـ بيكو، وطوائف وعشائر ومذهبيات، لا بُدَّ وأن نواجهها في وحدة دفاعية ثقافية ـ اجتماعية على هدف تحرير الأرض، وبحيث تكشفت هذه الوحدة في أبطال استشهاديين كان انتماؤهم في فعل الاستشهاد فقط للأمة والوطن، معبرين في بطولتهم وفعل استشهادهم عن هذه الوحدة الممتدة جذورها عميقاً في صميم الثقافة السورية، التي هي ثقافة الفعل لإحقاق الحقّ والعدل والمساواة، في مواجهة قوة الباطل.

رابعاً: فلسفة الاستشهاد، فعل الخلاص وقتل التنين

في زمن المحن الكبرى، تعود الشعوب إلى تراثها تستنبشه، تستحضر أبطالها الأسطوريين والواقعيين، تحتاجهم. نحن نقاتل اليهود، نقاتل الشرّ. وفي معركتنا هذه، الحسين (رضي الله عنه) في كربلائه نموذج بطولي نحن نحتاجه، يسوع (عليه السلام) أيضاً، وكُلّ شهداء التاريخ من أجل الحياة: الحقّ والعدل والنظام والاستمرار. البعل ـ من أبطالنا الأسطوريين ـ كما في الرسم يمثله يطعن تنين الشرّ ويصرعه ويضرب رأسه بصاعقة: فعل صراع يحمي الحياة ويصونها.

ولأن هذا العصر هو عصر الشعوب، فإننا نستخلص المستقبل من تمرسنا بفعل الصراع، ولو كانت طريقة طويلة وشاقة، من أجل قضية حقّ لشعبنا في مواجهة باطل يزداد كُلّ يوم، غياً، في باطله. ولأن الأمة السورية هي وجود حضاري، فإن لهذا الوجود طاقاته الخاصة وقاعدته الدائمة، المتطورة تطوراً قائماً على مرتكزات وثوابت ولكنها مستمرة، هي الثقافة المجتمعية بشمولها، يأتي الاستشهاد أو مجابهة الموت بالموت، إذا ما اقتضت الحاجة، من ضمن المقومات الأخرى لنهوضها، كما العلم والاقتصاد والإدارة والتشريع. والمجتمع هنا، يحمل في قدرات وجوده وفي أصالة وجوده الحضاري المتهيئ للتحرر والتحرك والفعل، مكتنزات تاريخه الثقافي واتجاهه في الحياة، في خوضه حقه في التفاعل الحضاري مع العالم، صراعاً، قياماً بدوره ومشاركة كونية في ورشة الإنسان الكبرى وفي دوره في تحقيق الحقّ والعدالة الإنسانيين. ولأن الأمة السورية وجود حضاري، فقد عُني بلمعاته وإضاءاته من الباعثين على قيامته، استشهاديين وأبطالاً.

وبعد أن رأينا المضمون القيمي في مبدأ الصراع والبطل المخلّص من أجل قيم الحقّ والعدل والمساواة والتقدم في التراث الفكري في الهلال الخصيب، فإن أهمية البطل المصارع في هذه الثقافة، أنّه قاتل تنين شرور وفوضى وخراب، وباعث حياة ونظام وعدالة، بل وأهميته أنّه «استشهادي» نازل الموت بالموت. وأهمية تلك الرموز القديمة، أنّها كانت في الماضي، نتاج فكري جماعي لحياة عامة ومواقف جماعية كبرى. واليوم، إذ تتكشف لمعات حقائقنا الذاتية المجتمعية في فعل الاستشهاد، فذلك يعني خروج حقائقنا المجتمعية من العملية الطقسية الزاحفة في مرحلة من تاريخنا، وإعادة تمثلها وتحقيقها في حياتنا المعاصرة، وقد أصبح لدى الاستشهاديين من أبناء شعبنا رؤية حقيقية لذاتنا المجتمعية التاريخية، للأمة والوطن، وهي رؤية وجدانية واقعية في آن معاً، وأصبح أي شاب أو فتاة، علي أو جورج أو فاطمة أو مريم، يستطيع أن يستلهم أي واحد من أبطال تاريخنا الواقعيين والأسطوريين، في مواجهتهم الموت من

أجل الحياة. هكذا حافظ تراثنا الثقافي على قيمه فعلاً معاصراً بتعاملنا معه تعاملاً عاقلاً وليس تعاملاً طقسياً خاملاً. هذا الزمان هو زمان «البطل المخلّص»، وليس «البطل المنتظر». إن إشكالية «الانتظار» هي ذلك الخطر المحدق بنا على المستوى القومي. هذا الزمان هو زمان البطل «المخلّص». والبطل المخلص لهذا العصر، هو إرادتنا المجتمعية الواعية تمحق تنين هذا العصر المتعدد الرؤوس. الخطر الأكبر هو في أن نحيل قيمنا الصراعية إلى عقائد وطقوس جامدة. نحن «ننتظر» بطلاً مخلّصاً هو البعل، هو مار جرجس، هو الخضر. شعبنا «ينتظر» بطلاً. البطل هنا، هو مضمون قيمي قديم يتجذر فينا. إلا أن «الانتظار» هو الجديد هنا، بعد أن تحولت قيم الصراع في مرحلة من تاريخنا إلى وجهة نظر استسلامية. نحن في حالة صراع، في حالة فعل، وتحقق النصر هو التحقق التموزي، هو تحقق البطل المخلص. الحسين (رضي الله عنه) في كربلائه لم ينتظر، ويسوع (عليه السلام) في درب آلامه لم ينتظر، الحسين (رضي الله عنه) كان مخلصاً للإنسانية في قيم جهاده ومواجهته للظلم والموت، ويسوع (عليه السلام) كان مخلصاً في درب آلامه ومواجهته للموت فداء للإنسانية. من أجل الحقّ، اقتحم الحسين (رضي الله عنه) معركة الموقف العظيم مختاراً الاستشهاد في مواجهة الباطل بكل غطرسته واضطهاده وإذلاله وفساده. وغدا موقفه إحدى التجليات التاريخية ومثالاً لبطولة الموقف إثباتاً للحق، حيثُ لا تهاون ولا استسلام ولا إقرار بالأمر المفعول، فالحق قيمة لا توازيها قيمة في الحياة إلا الشهادة. وفعل الاستشهاد طوعاً واختياراً كان التعبير الأسمى لتأكيد هذا الحقّ، فلم تقف موازين العدة والعتاد عائقاً أمام عظمة الموقف ولا موته كفرد، وهو الإمام الثائر الذي يأبى صناعة التاريخ بغير حقّ وبغير القيم والمبادئ في مواجهة القوة بشرف الموقف وعزّه، جاعلاً دَمّه شهادة المفاصل الكبرى في التاريخ الإنساني ثورة وتصحيحاً وتغييراً وتقويماً، حين كان الحقّ يسحق ويقام الباطل عنه بديلاً.

الحسين (رضي الله عنه) في كربلائه نموذج استشهادي نحن نحتاجه؛ يسوع (عليه السلام) في درب آلامه نموذج استشهادي نحن نحتاجه. نحن نحتاج إلى أبطالنا الواقعيين الأسطوريين. في رمز البطل المخلص قاتل تنين الفساد والشرّ والموت، نحن مدعوون إلى المواجهة، إلى القتال ضدّ تنين الفساد والشرّ في نموذجه المعاصر «إسرائيل»، انتصاراً لقيم الحقّ والعدل الإنسانيين، وليس «للانتظار» فقط. نحن «البطل المخلّص المنتظر» لتخليص الإنسانية جمعاء من تنين هذا العصر، في النصوص القديمة في الهلال الخصيب، كما في جوهر الإسلام برسالتيه المسيحية والمحمدية، الحكمة والقوة تنتصران بالتوحد من أجل الحقّ والعدل. وفي حال أصبحت مقاربتنا للبطل المخلص قاتل التنين، استجداء وانتظاراً، صار ذلك تسولاً للحق وللعدل. وهنا،

أضحت مقاربة المثل الأعلى مقاربة التسول. وهذا تعارض مع الجوهر الذي تضمنته قيم الصراع في رموز قتل تنين المفاسد والشرور، فالبيئة الاجتماعية التي أنتجت ذلك المثل الأعلى، لا يمكن أن تحوله تسولاً وانتظاراً وذلاً، إلا في حالة واحدة فقط، هي تردي الحالة القومية العامة وتشتت البنية النفسية للمجتمع، وهذا كان حالنا يوم خسرنا فلسطين. والسؤال التوضيحي هنا: هل كان يمكن ليسوع الناصري (عليه السلام) أن يولد وأن يواجه الموت ببطولة الإقدام على الموت، في مجتمع لم يتعرف إلى التراث الذي احتضن فكرة افتداء الفرد للجماعة، بدءاً من إنانا، كما دوموزي، والتي اختارت الموت طوعاً لتفتدي حياة البشر، ثُمّ قامت في اليوم الثالث من بين الأموات استشهادية أولى في التاريخ؟

لقد احتضن الوجدان السوري هذه الفكرة. لكن الموضوع هنا لم يتوقف عند التعامل الطقسي فقط، بل أرانا كيف يتحقق ذلك عملياً في مواجهة يسوع للموت فداءً للبشر.

هكذا أمكن أن يولد يسوع (عليه السلام) وأن يكون يسوع (عليه السلام) وأن يستشهد يسوع (عليه السلام). إن الفكرة الدهرية المتخمرة، حققها عملياً. لا يمكن أن يوجد يسوع (عليه السلام) كما عرفناه، خارج هذه الخلفية التراثية.

خامساً: أعظم سلاح هو سلاح الثقافة! الإنسان قنبلة

ما الذي يفجر الإنسان قنبلة في بلادنا لولا الوجدان الداخلي؟ ماذا عن الاستشهاديين يفجرون أجسادهم طوعاً واختياراً؟ يفجرون أجسادهم في المعتدي موقفاً وبطولة من أجل حياة أمة؟ عندما تتكشف ثقافة التضحية الفردية والبطولة الاجتماعية في فعل الاستشهاد، تغدو الثقافة سلاحاً، بل فلسفة حياة تحسم الجدل والنقاش في القضايا الكبرى والمواقف الفاصلة، ويغدو الاستشهاد قانوناً، أسوة بقانون حقوق الإنسان، رديفاً للعدل والحرية والمساواة، وأسوة بقوانين الطبيعة، حيثُ توازن الكون في عدله، في نظامه، تتمظهر فيه إرادة الأمة لحسم موقف وتأكيد عدالة نحن نحتاجها في قضية مواجهة كبرى، وفي مواجهة أعتى أسلحة يستخدمها الباطل مسخراً التقنيات الحديثة للخراب والدمار والموت، ومحق كُلّ القيم الإنسانية، وحيث ما يسمى بمنظمات دولية حقوقية وإنسانية، غدت عناوين فارغة من محتواها تحيل الباطل حقاً والحق باطلاً متى تشاء وكيفما تشاء، بحسب ما يرتضيه نموذج فلسفة القوة في طغيانه وإرهابه. هنا يتكشف الاستشهاد ظاهرة من ظواهر الأمة، تفلسف التاريخ، تعيد صناعته، تؤكد حقيقته في قلب الموازين وتغيير حكم اللحظة والمنطقية السائدة لموازين القوى، فتخلق اللحظة المغايرة

للراهن، باختراقها للزمان ومنطقية معادلاته العلمية، واختراقها للمكان وموازينه، بالفلسفة العقلية حيثُ العقل الاجتماعي يشع في الفرد ـ وهو إمكانية إنسانية في المجتمع ـ غضباً ووجداناً وموقفاً: إرادة أمة في قرارِ أحد، وحق أمة يعلن في صرخة جسد. إن انفجار سناء أو ابتسام أو بلال أو أحمد أو جورج أو علي أو هادي من أجل الحقّ، هو انفجار الوجدان بقيم يكتنزها الوجدان العام في بلادنا. هنا يتكشف الاستشهاد إرثاً ثقافياً روحياً، من مكتنزات النفسية السورية الصراعية، والشواهد التاريخية الثقافية تؤكده قوة مركزية استراتيجية في عملية الصراع، تماماً كما يشكل مركزية استراتيجية في نهج المقاومة، ظاهرة معاصرة متأصلة جذورها العميقة في نفسية مجتمعنا بالمعنى الثقافي الاجتماعي السياسي. وقد رأينا في سياق الدراسة أن كلمة «الاستشهاد» والتي وردت لأول مرة في نصوص وادي الرافدين قد انتمت كمفهوم، إلى فلسفة الأخلاق وفلسفة الفعل، بحيث استندت إلى أساس من قيم إنسانية عليا، وتأتي في إطار فلسفة الأخلاق المطلقة التي تشتمل على المبادئ الفلسفية، وفي مجال أخلاق الموقف المبنية على تحديد المعطيات المعقدة في الحياة والتي تحتاج إلى موقف فعل!

واليوم ترتقي فلسفة الاستشهاد بعملية الصراع، بحيث تنظر إلى المستقبل، بالعمل له، والأمل به، فعلاً جماعياً يصدر عن أصول تاريخية ثقافية عميقة، فإذا كان تاريخ الإنسان هو تاريخ الحياة في مستواها الاجتماعي (المادي الروحي)، فالحياة إبداع لا يقف عند حدّ أو شكل، ومن إبداعاتها فلسفة الاستشهاد.

اليوم، نحن بحاجة إلى فلسفة بطولة. ولدينا فلسفة بطولة. نحن بحاجة إلى فلسفة مواجهة. ولدينا فلسفة مواجهة. نحن بحاجة إلى فلسفة لبطولتنا وبحاجة إلى بطولة لفلسفتنا، ولدينا كلاهما: فعل الاستشهاد هو فلسفة بطولتنا، وبطولة فلسفتنا. لدينا كلاهما منهجاً ومنطقاً وأغراض كبرى تساوي وجودنا أمة حية، وتساوي حقنا في هذا الوجود. العقل تحديداً هو المواجهة، تماماً كما الفعل تحديداً هو المواجهة. أخطر مهمة هي مهمة إطلاق العقل في المجتمع، نحيلة فعلاً نهضوياً ثورياً تغييرياً في أعلى مستوياته، فكيف إذا ما اتصلت هذه المهمة بما اختلفت إليه الأسماء من ديني أو أسطوري أو تراثي في مفهوم الاستشهاد نعلنه: فلسفة حياة، نحن في حاجة إلى تأكيد جدارتنا، كما حقنا في الحياة، بناموس واحد، إنساني، عالمي، مطلق، قوامه ركنان: البطولة والمعرفة. تماماً كما أعلنه سياق اتجاهنا في الحياة منذُ ثلاثة آلاف عام ق. م. البطولة مفهوم عقلي، لأنه يصدر عن إرادة عقلانية واعية. والمعرفة مفهوم عقلي، وهما رافدان من القاعدة الأساس القائلة «المجتمع معرفة والمعرفة قوة». في مقاومة شعبنا لليهود و«دولتهم»، ظهرت البطولة الكامنة في شعبنا بكامل بهائها في

فلسطين المحتلة، كما في جنوب لبنان، مع استشهادينا، كما مع الاستشهاديين الأحياء أطفال الحجارة، الظاهرة الإنسانية الفريدة. أجل البطولة عندنا، أخلاق جبلت طينتنا بها، وهي أعز قيمة، نتسلح بها فداءً في سبيل الحرية القومية، إذا سُدت السبل، فنقاتل استشهاداً، أو نفجر أنفسنا استشهاداً؛ في المواقف الكبرى، تتحرك الأمة، تعبّر عن نفسها. فكلما ازداد الضغط، كُلّما عبرت الأمة عن نفسها بإضاءاتها (استشهاديين وعظماء) بسرعة المعرفة، بسرعة اجتياح الإنسان بقيمه العادلة، للكون الماثل أمامه وفق إرادة التحدي، والقدرة عليه، ومواجهته، في استنباط جديد لمعايير جديدة لموازين القوى، يتمايز بابتكار الطاقات والأساليب، استجابة الأمة الحية للتحدي أمام معايير الظلم والقوة، حيثُ «لا خلاص لنا إلا بالقوة المنظمة والبطولة المؤمنة المؤيدة بصحة العقيدة». والإرادة العامة هنا، إرادة الأمة، لا يمكن أن يعبر عنها إلا المؤهلون، ومنهم الاستشهاديون، عقلاً وأخلاقاً، في تعبير استثنائي عن إرادة أمة وأغراض عامة كبرى، لا إرادات خاصة وأغراض شخصية. هذا النهج الثوري العالي، لا يمكن أن يحقق ذاته معزولاً عن وجدان وفكر وأخلاق الأمة، فكلما ازداد الضغط، كُلّما تكشفت الأمة بأخلاقها، بل بفلسفة أخلاقها خطوطاً تترك أثاراً عميقة في تاريخها ونهضتها ومستقبلها الآتي.

لذا تكشفت ظاهرة الاستشهاد مجدداً، عندما ثقل ضغط المحتل الجاثم على أرضنا، متمادياً في ظلمه ووحشيته، ليُسقط روح الإرادة المقاومة في الأمة، وروح الصراع، مثلما تمادى في احتلال المزيد من أرض الوطن، من فلسطين إلى جنوب لبنان إلى بيروت، والجولان، إلى العراق. إن مسألة الأخلاق في فعل البطولة الاستشهادية، هي مسألة الروحية الحقّة التي يمكن أن تفعل في المجتمع، بل وتعبّر عنه أيضاً. ذلك هو أساس أهم الصفات المناقبية في فعل الاستشهاد، والتي تقوم أولاً وقبل كُلّ شيء على نكران الذات في سبيل المتحد الاجتماعي الأتم ـ الأمة، وفي سبيل القضية الكبرى. هذا ما يؤكّد عليه تراثنا الأخلاقي، في أبطالنا الأسطوريين كما في أبطالنا الواقعيين في التضحية بالذات، والبطولة الاجتماعية في أعظم نماذج المناقبية السورية: «البذل والعطاء كقيمتين لا تنتظران الأخذ والمقابل والثواب، ليستا من المناقبية النفعية (لا في الدنيا ولا في الآخرة): هي مناقبية المصلحة العليا للأمة، لا مناقبية ومصالح ومنافع الأفراد»[٢٠].

إن تعبير الفرد في الأمة المجزأة سياسياً، عن مصالحها، ونصرة مستقبلها، والتزامه القصة حدود الالتزام بقضيتها، هو تعبير عن وحدة الوطن ووحدة الأمة

(٢٠) المصدر نفسه.

ووحدة القضية، متجاوزاً اتفاقيات الدول «والمواثيق الدولية» المتآمرة، التي عملت على تجزئتها ووحَّد الأمة بجسده، من أجل قضيتها الواحدة.

إن لحظة اتّخاذ القرار بالاستشهاد هي نفسها لحظة إعلان قرار الولاء للأمة في وحدتها، وللوطن في وحدته، في إلغاء تام للولاء للطائفة والمذهب والكيان السياسي المجزأ من الوطن الطبيعي، والفئة والعائلة والعشيرة. ولحظة فعل الاستشهاد، هي لحظة تثبيت القدرة على التمرس بـ «المواطنية» نفسها بكل شروطها الواقعية المجتمعية ـ التاريخية ـ الثقافية، كما هي لحظة تثبيت السيادة الكلية للأمة والوطن، في وجدانه، كما على خارطة العالم، بمعزل عن أية موالاة أو عدم موالاة للنظام الحاكم في الكيان المجزأ. . في فعل الاستشهاد، يتكشف فقط الإيمان بسيادة الأمة والوطن ولا ثالث لهما.

هكذا، يرتبط فعل الاستشهاد بفلسفة المواطنية. و«المواطنية» هي غير «الوطنية». الوطنية عاطفة نبيلة تجاه الوطن، أما المواطنية، فترتكز إلى تصور فلسفي لمفهوم الأمة والوطن، وبالتالي لمفهوم المواطن انطلاقاً من الواقع الجغرافي الاجتماعي التاريخي السياسي للأمة. هي فلسفة ترتبط بالمقاومة ومفهوم الصراع على المستوى المعرفي من أجل النمو والتقدم، كما على مستوى صيانة الأمة تجاه الاعتداء على وجودها. فقد يعمل النظام السياسي القائم في الكيان المجزأ من الوطن، على تعميم «الوطنية» «كيانياً». أما المواطنية، فلا يمكن أن ترتبط إلا بالوطن الطبيعي، حيثُ يرتبط فعل الاستشهاد بفلسفة الأخلاق، تمرساً، على مدى الوطن كُلّه والأمة كلها، حتّى الأجيال التي لم تولد بعد.

أهمية فلسفة المواطنية هنا، هي في التمثيلية التعبيرية عن إرادة الأمة، حيثُ إنَّ ما تحمله المواطنية من مضامين، من شأنه توضيح المضامين المتناقضة معها ودحضها، بدءاً من الفردية إلى العائلية والعشائرية والطائفية والمذهبية والكيانية السياسية، والمجزئة جميعاً لوحدة حياة الأمة والوطن. هي فلسفة، ترتكز إلى الحقائق المجتمعية، والأصول النظرية الثقافية والتاريخية. وهذه الحقائق إياها، هي التي يرتكز إليها المواطن الاستشهادي، فقبل أن يكون استشهادياً أو غير استشهادي، يجب أن يكون مواطناً أولاً وقبل أي شيء آخر في استشهاده، مواطناً، بمعنى «المواطنية» ومضامينها القيمية الفلسفية، هو يعبر عن إرادة الأمة في حقيقتها، حيثُ يصبح التمرس بقيم الحرية والواجب والنظام والقوة هي الأساس العملي التطبيقي لفلسفة المواطنية مهما كانت الظروف الآنية المحيطة، المناقضة لمحتواها. وفلسفة المواطنية هنا، في فعل الاستشهاد هي الفلسفة العملية التي تصب في منظومتها كُلّ المفاهيم التي عملت الفلسفة على تعريفها: قيماً إنسانية وديمقراطية وهوية وما يرتبط بها في واقع الحياة الإنسانية.

هذه الحقيقة التي يعلنها الاستشهادي عملياً، من خلال جدلية تبادلية حميمة بين وحدة القضية ووحدة الوطن الجغرافي في وحدة المجتمع، والذي قد يكون مخالفاً لـ «الوطن السياسي» الراهن الذي ينتسب إليه الاستشهادي، وإن انتسب إلى دولة الكيان السياسي الراهن، هو، في واقعه الطبيعي كمواطن، ينتمي إلى وحدة وطنه ومجتمعه، وهنا، تكون ثقافة الاستشهادي/ عقيدته، في إدراكه لذاته المجتمعية، قد فاقت الراهن منها، الذي لم توجد له الدولة بمعناها الحقوقي السياسي للأمة كلها في حقيقة مفهومها: مفهوم الوطن الطبيعي والمتحد الاجتماعي الطبيعي الأتم. وإذا كان «المواطن» يعني أنّه عضو بالفعل في دولة الوطن، بما تحمل هذه العضوية من واجبات وحقوق، فقد مارس عضويته في دولة الوطن الحقيقية انطلاقاً من الأساس الفلسفي لمعنى المواطنية، فيكون قد انتسب فعلاً، بقفزته النوعية إلى دولته التي يريد، دولة الأمة: «الدولة القومية المنبثقة من إرادة المجتمع الشاعر بوجوده وكيانه»، حيثُ الدولة الديمقراطية بكل جلائها في زمن «الديمقراطية» التي يأتوننا بها إذلالاً وعبودية. تلك هي الديمقراطية الحقّة تتكشف في وقفة العزّ المعبرة عن إرادة الأمة.

إرادة الاستشهادي هنا، بفعل الاستشهاد، هي تعبير عن الحياة الواقعية والقضية الواقعية والمصلحة الواقعية للأمة. وهو، بإرادته هذه، يسبق دولته الكيانية ويقفز فوق المقررات الدولية، في تحقيق هذا الفهم وهذا الإيمان وهذه الحقيقة.

إنها عقلية ثورية استثنائية، تتجاوز الأمر المفعول لتؤكد الوطن في وحدته والأمة في وحدتها، تستند في قوة التطبيق، إلى عقلية أخلاقية جديدة معلنة، قديمة كامنة، هي أثمن ما يقدمه الاستشهادي لشعبه وبلاده تأكيداً على قومية المعركة. فيقتحم ابن الشام، وابن حماه، أو ابن طرطوس أو ابن الشوف والجبل، أو زغرتا، المواقع المتقدمة في جنوب لبنان وفلسطين استشهاداً، واضعين جميعاً أمام أعينهم قضية عادلة، وآلاماً عظيمة للأمة وسلسلة ظالمة مظلمة من إذلال ومذابح، تمت على مدى أكثر من قرن، تنتقل من دير ياسين وكفر قاسم إلى صبرا وشاتيلا وقانا والزرارية والقنيطرة، وليس لهم غير أجسادهم سلاحاً ودمائهم كلاماً حاسماً يُقال.

كُلّ نظام يحتاج إلى أخلاق، وكُلّ نهج يحتاج إلى أخلاق، وفعل الاستشهاد، نهج بطولة أخلاقية استثنائية إرادية واعية ركنها أخلاق الحرية. «فنحن نحب الحياة لأننا نحب الحرية ونحب الموت متى كان الموت طريقاً للحياة»، فالمناقب التي نحتاجها في المواقف الكبرى، تقوم على أخلاق الصراع، بكل ما تفترضه أخلاق الصراع من إيمان وصلابة: «أخلاق البطولة المؤمنة المؤيدة بصحة العقيدة»، وأخلاق المواجهة والقتال بوعي للهدف، وعزيمة تطلب الموت متى كان الموت طريقاً للحياة»، هو المخزون النفسي والثقافي في تحقيق وقفة العزّ في عظمة الموقف. «إن أخلاق التضحية

الفردية والبطولة الاجتماعية هي مناقبية أخلاقية عكس النفعية الفردية ونقيضها، حيثُ لا تعرف النفعية الفردية إلا مصلحة الفرد[٢١].

المبدأ القائل إن مصلحة الأمة فوق كُلّ مصلحة، هو المقياس للتجرد في العمل القومي في أعلى مستوياته، حيثُ الإقدام على فعل الاستشهاد يبلغ أرقى تعبير، وحيث مصلحة الأمة والوطن تعلو فوق كُلّ مصالح الأفراد والفئات. أخلاق السمو النفسي والارتفاع عن العيش المادي والمنافع الفردية والإيمان أن الحياة كلها وقفة عزّ فقط، في قضية تساوي وجودنا كأمة، حيثُ يبرز الوجدان القومي كأهم الظواهر الاجتماعية العامة العصرية[٢٢]. وحيث القومية «هي يقظة الأمة وتنبهها لوحدة حياتها ولشخصيتها ومميزاتها ووحدة مصيرها». «إنها الوجدان العميق الحيّ الفاهم الخير العام، المولد محبة الوطن والتعاون الداخلي بالنظر إلى دفع الأخطار التي قد تحدق بالأمة»[٢٣].

أن تضحي بنفسك، بما هو في سبيل قضية عادلة هي قضية أمتك ووطنك، إنَّما تجسد تكامل الفعل بين تحقيق الغاية وإطلاق ثوابت الإيمان بالقضية عطاء وفداء، ولا يمكن أن يكون غير مصلحة الأمة دافعاً للاستشهاد. الإنسان ـ المجتمع، الأمة، حياتها ومصيرها هي المرتكز في فلسفة الاستشهاد. وثمة علاقة جدلية بين الاستشهاد وبين الهدف الذي ينشده، بحيثُ إنَّ شمولية هذا الهدف هي التي تحدد قيمته كعمل استشهادي. لذا، ففلسفة الاستشهاد هي فلسفة الفعل للحاضر، والعمل للمستقبل، والأمل به، والتمهيد للنصر، والدفع المعنوي للأمة برؤية هذا النصر، في التمهيد له والقدرة على بلوغه، وهي «فلسفة الأمل»، بما اتسمت به في نصوص وادي الرافدين، حين قلبت مفهوم الموت من يأس الموت الفردي، إلى أمل المستقبل الاجتماعي المنتصر، من قوة سالبة إلى قوة موجبة، من موت فردي إلى حياة للجماعة، من حدث فردي عادي إلى فلسفة استثنائية للمستقبل والحياة الآتية لأجيال لم تولد بعد، في الأمة صاحبة الحقّ.

وانطلاقاً من الموت الفردي في الوجود المحدود، تغدو فلسفة الاستشهاد دفع من نوع استثنائي باتجاه الحياة، باتجاه إحقاق الحقّ في لحظة حاسمة من تاريخ الأمة وأحداثها العظيمة. ضمن فلسفة الاستشهاد، لم يعدّ الموت، قوة سلبية مناقضة

---

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) أنطون سعادة، **نشوء الأمم**، ط ٣ (بيروت: عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي، ١٩٧٦)، ص ١٦٦.

للحياة، بل هو منطلق إليها، وموقف لحمايتها، في ما تعنيه الحياة من قيم ومضامين إنسانية مطلقة. والموت هنا يرسّخ إرادة الحياة وعزها بطريقة عملية تخترق طبيعة الموت الفردي فيزيائياً، إلى حقيقة حياة الجماعة فلسفياً.

وإذا كانت من صفات الزمان أنّه مفتوح دائماً على المستقبل، فالاستشهادي هنا، يفتح الزمان على المستقبل الذي يريده هو. والذي يريده «هو»، ليس بصفته الفردية، وإنّما بما يمثله من قيم الصراع بين حقّ أمة وباطل محتل معتدي. يبزغ هنا، فجر الإمكان، على هذا المستقبل المنفتح. إمكان النصر، إذا لم نقل حتمية النصر (بلغة الاستشهادي). لا شيء في هذه القفزة النوعية له معنى، إذا لم يكن يؤدي إلى النتيجة الكبرى التي يؤمن الاستشهادي بها: انتصار قضيته العادلة.. قضية الأمة. هذا المستقبل، هو الشرط الأساسي الذي تعاقد معه الاستشهادي كما تعاقد له. تعاقده معه هو تعاقده المدموغ بدمه مع مستقبل أمته وبلاده؛ ومتعاقد له، في تعاقده مع عزّ الموقف رفضاً للأمر المفعول، وتغييراً في المعادلات من أجل هذا المستقبل. مستقبل الأمة هنا، هو قصديّة الفعل الاستشهادي الواعية، المدركة حقيقتها وعدالتها وحقها. أن يدرك الاستشهادي معنىً لفعله النوعي، هو أن يمتلك مستقبل هذا الفعل، وفهماً لهذا المستقبل. وهو هنا، يمنح زمان بلاده، اتجاهاً جديداً يحدده في لحظة موقفه العظيم، حيثُ لا شيء إلا المواجهة والمجابهة استشهاداً، نصراً أو تمهيداً للنصر. لا وسط بينهما. بذلك، كوَّن الاستشهادي لذاته، حرية ما بعدها حرية، امتلاك الزمان والمكان والوسيلة والغاية.

الاستشهادي هنا، بهذا الامتلاك وهذا الامتلاء الروحي بكل مكتنزات البطولة الواعية المدركة، يسهِّل عملية التاريخ، يحاول تفكيك عقدها في إشكالية الراهن من حياة الأمة، وحسم الجدل القائم في أن يكون المحتل أو لا يكون، في أن تكون الأمة صاحبة الحقّ، أو لا تكون. ويحدد الاستشهادي هنا، مساره، باتجاه تدوين الحقيقة بكامل شروطها ـ وجوداً ومعرفة ـ في معركة «أن نكون أو لا نكون»، ويعود إلى ما هو حقل الإرادة الإنسانية ـ الفاعلة، المحوِلة مسار الأحداث باتجاه ما هو مغاير للراهن والمفعول، كما إلى تأكيد حقيقة المواطن المنتمي إلى أمة واحدة غير مجزأة ووطن واحد غير مجزأ. وذلك، في أنّه يمتلك القدرة على أن يمسك بزمام الزمان والمكان والوسيلة والغاية، ليساهم في تسهيل حركة التاريخ في اللحظة التي يتمرس فيها بنموذج الحرية ـ في فرادته ـ في إعادة كتابة التاريخ، كما وجب أن يكتب التاريخ: تاريخ الحقيقة وفعلها، بدل أن نقرأ تاريخاً كتب لنا بغير إرادتنا، أو نساهم في محو التاريخ بحقيقته، أو نكتشف ـ بعد غفلة منا ـ تاريخاً ليس لنا، وإنّما على أرضنا، على بقايا، أو عدم وجودنا.

الحرية هنا، هي سبيل الاستشهادي إلى الخروج من سجن الأمر المفعول إلى فضاء إرادة الأمة وحتمية انتصارها، خياراً إرادياً طوعياً، يساهم في تحديد مسار المستقبل، هذا المستقبل الذي يراه بخياره هو، خيار الأمة في النصر للعدالة. هي حرية، من حيثُ هي خرق جذري شامل لكُلّ ما خطط للأمة بغير سيادتها، ناسفاً كُلّ ما قرر لها بغير إرادتها.

في صراعنا مع عدو استثنائي كعدونا، تلك هي الحرية الوحيدة في إعادة كتابة التاريخ. وإذا كان لكتابة التاريخ شروطها الموضوعية، فأية شروط أكثر موضوعية من ـ حقيقتنا ـ من حقيقتنا أمة ووطناً وقضية تساوي وجودنا؟ إعادة كتابة التاريخ هنا، لا تعني قطيعة مع الماضي الذي كان في حقيقته وفي هويته مرتكز انطلاق، حقيقة هذه الهوية التاريخية، هي ما يستوجب البدء بإعادة كتابة التاريخ من جديد، على ضوء هذه الحقيقة. ذلك هو المحتوى الأساسي للهوية التاريخية الثقافية المجتمعية للتاريخ، في ماضيه ـ مفتوحاً على المستقبل بآفاق انتصاره.

هنا، يغدو الاستشهادي تمرداً على النظام المعرفي السائد، حول القضية التي يستشهد من أجلها. هي ثورة معرفية استثنائية عملية إزاء القضية الكبرى، في عدالتها، حيثُ لا إقناع هنا بالحجة والحوار، حيثُ تنتفي لدى المحتل الإرهابي هذه اللغة المناقضة لنهجه الإرهابي التدميري الإذلالي بكل موبقاته. الاستشهاد هنا، ضوء معرفي عملي يفهم لغة المحتل ويفهم همجيته، ويفهم مستوى اعتماده على آلته الحربية التدميرية بكل شراستها وضخامتها، وهو لا يملك غير جسده سلاحاً، ودمه شهادة. إنها إرادة الحياة بأكمل وجوهها، ورفض موت الجماعة في أعلى مستويات الرفض، بإرادة حرة واعية، حيثُ الموت هنا تلازمه الحرية بكامل حركتها وفعلها، لأن الحرية صراع تتجلى في أعلى التزاماتها، كما الواجب يلبي نداء اللحظة التاريخية، كما النظام في عدله، والقوة في قولها الفصل في إثبات الحقّ القومي. والموت هنا، يلازمه الحب الاجتماعي في أرقى مظاهره: خيار عقلاني وجداني في آن معاً. أعلى مراتب التضحية أن تواجه فكرة موت الأمة الجماعي بالموت الفردي دفاعاً عنها وصوناً لها، واستشرافاً لنصرها. وأعلى مراتب الحياة هو أن تقرر الموت فيها زماناً ومكاناً متجاوزاً المدى الفردي إلى المدى الاجتماعي الكلي. «قد تسقط أجسادنا أما نفوسنا فقد فرضت حقيقتها على هذا الوجود». هذا الموت الإرادي/ الاستشهاد، هو وسيلة وغاية، وسيلة عزيزة لغاية عزيزة، وسيلة لما يصبو إليه فعل الاستشهاد، وغاية في كونه عملية تحقق فعل وموقف في ذاته، تعبيراً عن إرادة الأمة في صرختها القائلة «نعم» و«لا» في اللحظة نفسها، «نعم» بوقفة عزّ، للحياة كلها بكامل تجلياتها وجوداً وحقاً وحرية؛ و«لا» للظلم والقهر والباطل الجاثم فوق ترابها بكل وجوهه. هنا فقط، يغدو الموت

الإرادي وجهاً آخر للحياة، وهو بهذا المعنى من أعظم إنجازات الإنسان تعبيراً في الدفاع عن وجود الإنسان والمضامين القيمية لوجوده، فتكون بذلك فلسفة الاستشهاد، فلسفة الفعل، فلسفة الحياة: تاريخاً، وحرية، وواجباً، ونظاماً، وقوة في أرقى تجليات الحب الاجتماعي، والوجدان القومي. وإذ تمارس فلسفة القوة التفوق المحكوم بالغطرسة والطغيان والهيمنة، معتمدة القوة بكل ابتكاراتها التقنية وسيلة للقهر انطلاقاً من خيار الموت، أو الحياة وفقاً لشروط القوي وحده، يكشف فعل الاستشهاد نقاط الضعف الكامنة في فلسفة القوة، وهي تتلخص كلها في الموت نفسه. فإذا كانت هذه القوة تستعمل كُلّ طاقاتها ومنجزاتها للترهيب من الموت، الذي تعتمده مرتكزاً استراتيجياً تهددنا به لانتصارها، يتجلى فعل الاستشهاد متسلحاً بالموت نفسه درعاً على صدر الأمة وموقفاً، فعل الاستشهاد هنا، هو القدرة على التماهي مع قوة أشدّ فعالية من القوة المادية: هي قوة الإيمان بعدالة القضية والتي تفرّق بين الموت والخوف من الموت، بحيث يقضي اختيار الموت على كُلّ فلسفة القوة، والتي تقوم جوهرياً على مبدأ التخويف من الموت، هذه الفلسفة المتلازمة مع الموت كأقصى سلاح تستحضره.

إيمان على هذا المستوى، بالحق والعدالة، وهذا القدر العظيم من التماهي في الأغراض الكبرى في الحياة التي من أجلها نستشهد، يبتدع قوة من نوع جديد يحولها قوة إحياء للأمة وقوة تدمير للمعتدي عدة وعتاداً، مع ما يشكله هذا السلاح الجديد من دفع معنوي للأمة، وتدمير معنوي للقوة المعتدة بسلاح الموت، وقفزة نوعية في موازين المواجهة القتالية. هذه القفزة النوعية التي كانت سبباً في خروج الصهاينة من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، وهي التي ساهمت في تحويل الاستراتيجية الصهيونية من مشروع «إسرائيل الكبرى» على مساحة الهلال الخصيب (من الفرات إلى النيل: حدودك يا إسرائيل) إلى «إسرائيل العظمى» مستبدلة تمددها المكاني، الذي قهره مدّ البطولة الشعبية، بانحسارها ضمن أسوار عازلة في إسرائيل «عظمى» متمادية في عنصريتها، كما هي متمادية في احتلالها، دولة إرهاب منظم فريد في العالم، وفي التاريخ.

هكذا تستطيع فلسفة الاستشهاد أن تنتج قوتها من شحناتها الثورية الذاتية، في الدفاع عن وطن أو هوية، في ظلّ اختلاف موازين القوى، في حين يتجلى في هذه القوة كمّ هائل من السياسي والثقافي والنفسي والاجتماعي، الذي ينظر إلى المستقبل بمستوى الأمل الذي يحمله فعل الاستشهاد نفسه.

وإذ يشكل فعل الاستشهاد ظاهرة اجتماعية ثقافية معمقة بمعنى الصراع الذي تحمله والذي يختلف عن أي فعل صراعي آخر، فإن هذه الظاهرة إما تقترن بأقصى ما يمكن أن يبلغه الوجدان القومي، أو بأقصى ما يمكن أن يبلغه الوجدان المعرفي، أو

بالاثنين معاً؛ وكلاهما إدراك للذات المجتمعية. ويمكن أن تكون قوة النظام العقائدي إذا احتضنت هذين الركنين، مصدر قوة روحية عالية لا يمكن أن يكون فعل الاستشهاد إلا متفرعاً عنها أو عائداً إليها كرافد عملي تطبيقي لقوة نظامها العقائدي، فالعقائد التي تعلن ذاتها حركة هجومية على الباطل لا حركة دفاعية، تهاجم بالفكر والروح كما تهاجم بالأعمال والأفعال، تهاجم الأوضاع الفاسدة القائمة التي تمنع الأمة من النمو ومن استعمال نشاطها وقوتها، وتهاجم الحزبيات الدينيّة والعقليات المتحجرة المتجمدة، تهاجم النظرة الفردية وتستعد لمهاجمة الأعداء الذين يأتون ليجتاحوا الوطن فتقضي عليهم بقوة الصراع[٢٤]، عقيدة كهذه لا يمكن أن تترك اللحظة التاريخية تناديها، بل هي تسعى إليها بقوتها الروحية التي تحمل، فلا يكون من راد لها، حيثُ لا خلاص «إلا بالقوة المنظمة وليس بالضعف المنظم»[٢٥]، وفعل الاستشهاد في العقائد قوة منظمة في ما تحمل من دقائق العلم الحربي الاستشهادي وفلسفته، وشرف الرسالة، فهي هنا قدرة سياسية ثقافية قتالية في آن معاً. السياسة والثقافة والحرب في القضايا الكبرى، محمول منطقي لمفاهيم عقائدية تكون مفصلاً مهماً في ساحة الصراع ومصدر قوة. والاستشهاديون العقائديون هنا، يسلكون طريق الموت الذي يصنع الحياة العزيزة لأمتهم، ويقدمون على الاستشهاد بقدرة نفسية لا يمكننا مقارنتها بأية قدرة بشرية متسلحة عتاداً وعدة وعدداً، ما يعجز المعتدي عن تحليل قدراتها وتفوقها أمام أسلحته المتقدمة تكنولوجياً. الاستشهادي، هنا يخترق كُلّ المقاييس وكُلّ الحواجز وكُلّ الحيثيات والممكنات، ولا يعود يرى غير عدالة قضية شعبه وبلاده. هي فعل استراتيجي حاسم مرتكز على قضية واحدة عادلة أنموذجاً للعدل الكوني: ومن شأن العقيدة هنا التماهي بالاستشهادي بما يكتنزه من قوة روحية عقدية، إلى أعلى مرتبة يمكن أن يبلغها مستوى التضحية من أجل عدالة القضية. إرادة الفداء تغدو هنا، قدرة تحمل مخزون ألم أمة بكاملها ونصر أمة بكاملها، فكيف يمكن أن يكون مخزون وقفة العزّ في الجسد الحامل كُلّ هذه الآلام وكُلّ هذه الآمال في آن معاً؟ كيف يمكن أن يكون مبلغ انفجار الوجدان فيه قبل أن يتفجّر قنبلة؟

مثلما تفجّر الوجدان هنا هو توق حياة وسلام وأمان للإنسان، مثلما هو توق قتال وتحرير للأرض. وفلسفة الاستشهاد، به، هي نهج وقيم ومناقب وأخلاق ترسم خططها الخاصة وحساباتها التي تتجاوز الرقم والعدد والربح والخسارة بين فريق وفريق، بين جهة وجهة، فهي ليست صراعاً وحشياً يتوخى الغلبة في أرقامٍ بشرية،

---

(٢٤) سعادة، **مختارات في المسألة الفلسطينية**.

(٢٥) المصدر نفسه.

بل هي صرخة حقّ في وجه الباطل، إعلان حقّ ووجود وحياة، على المستوى القومي، وهو موقف عظيم إزاء العدالة الكونية في إشكالية تأرجحها بين حقيقتها والراهن منها. هي صراع بين العدالة والظلم وبين الإنسانية واللا إنسانية، بين الحرية والعبودية، بين الخير والشرّ، في كُلّ زمان ومكان، وأنموذجاً للإنسانية كلها، بل للكون كُلّه، موقفاً ورسالة قبل أن يكون تغييراً لموازين القوى، الذي لا بُدَّ أن يكون نتيجة منطقية للفعل والزمان والمكان.

السياسة والثقافة والقتال، تجتمع معاً في فلسفة الاستشهاد بصفتها استراتيجياً مقاتلة لاعتداء مسبق عليها. وهي في ما تمثله من إرادة الأمة الحرة تناقض سياسة الخصوصيات والمنافع الفردية والتخلي عن بديهيات المقاومة القتالية، لغطرسة القوة التي تعبث بوطننا وشعبنا. وهي فلسفة عملية بقدر ما تساهم في التأريخ الفلسفي فعلاً تطبيقياً.

فنحن أمة بقدر ما نؤرخ بأفعالنا، ونحن استشهاديون بقدر ما نؤرخ لأمتنا فعلاً مقاوماً في ما يحقق من حقيقة الأمة، في وجه دولة يهودية قامت على تزييف التاريخ في لعبة مصالح الدول المنتصرة بوسائل الإرهاب وسيطرة القوة. بذلك تؤرخ فلسفة الاستشهاد لآفاقها خطوطاً عميقة في الفلسفة الإنسانية، وتحفر خطوطاً عميقة في تاريخ الأمة بعد أن تكونت في نفسيتها اتجاهاً ثابتاً.

فلسفة الاستشهاد تدرك ذاتها، وتدرك فاعليتها، إذ ينقض المعتدي في ساحة الصراع، إلا أنها على الرغم من قوة ما تمثله من منظومة القيم الروحية والأخلاقية التي يحملها العقل والوجدان في آن معاً، تحتاج إلى مرجعية في الفن الحربي، ما يشكل تكاملاً بين الإقدام والإعداد: الإقدام والشرف القومي والتضحية الاجتماعية هي السلاح الأساس. هذا هو السلاح الذي يغيّر معادلات المعركة في إحراز نتائج استثنائية في عملية الصراع، على الرغم من التفاوت الاستثنائي في موازين القوى. هذه القوة الروحية لدى الاستشهادي هي الخيار النوعي الذي يقلب المعادلات الراهنة ويخرق التفوق التقني العسكري، ما يقلب موازين القوى النفسية لدى الأمة إلى قوة، وفي المعتدي إلى ضعف، لدى الأمة أمل بالانتصار ولدى المعتدي قلق من الهزيمة؛ في فلسطين المحتلة، كما في جنوب لبنان، أدركت فلسفة الاستشهاد ذاتها إيماناً وصلابة في نفس الاستشهادي وقدراته، لتشع على محيطه الاجتماعي في سابقة لم يسجلها التاريخ. ذاك هو نتاج أقصى الظلم وأقصى القهر وأقصى جنون الباطل، يفجر وجدان الأمة في الاستشهادي إلى حدّ الإشعاع على من حوله: من مواطنيه.. من الأهل.. والأحبة، فتلازمه أمه تحضيرات الساعات الأخيرة، قبل خوض فعله العظيم، تودعه، حاملاً موته معه ليواجه به أعداء الأمة راجية النصر له وللأمة،

والهزيمة للأعداء، بكل صلابة، وبكل روية، وتنتظر ساعات الصباح الأولى تحمل إليها تباشير النصر للحظة الحاسمة من التاريخ، لحظة الاستشهاد ولحظة الموقف العظيم: لا للظلم والاحتلال وظلاميته، ونعم لحياة الأمة ونصرها وسيادتها، وللوطن عزه وشرفه. لا سابقة كهذه مرت في التاريخ، ونشهد لظلامية المحتل يستنبش عظمة نسائنا وأطفالنا كما شبابنا وشيوخنا، يعلنون جميعاً كلمة سواء في الاستشهاد ديناً ودنيا لهم جميعاً دفاعاً عن كرامة الوطن والأمة، في أغرب وأشرس معركة عرفها التاريخ. أذلك هو الثالوث الذي تجلى في ثقافة الفداء السورية؟ ثالوث أنانا، الإله والأم والابن الشهيد الفادي الأول في التاريخ؟

تلك هي فلسفة الاستشهاد تعيد إنتاج ثقافة الأمة في أجمل وأنبل تحد عرفه التاريخ، وتبدع في التعبير عن ذاتها حيثُ الثورة على الباطل ترتفع وتتصاعد إلى أرفع مراتبها.

وفي فلسفة الاستشهاد، يتمكن الاستشهادي من التماهي بالحياة والموت في آن معاً كوجهي حياة، حياة الأمة التي ينتمي إليها وموته الفردي وجهاً آخر لحياة أمته، فيجعل الموت طريقاً إلى الحياة العزيزة الكريمة، حيثُ منقلب التاريخ في اللحظة الحاسمة يقررها هو: لحظة للموت كما هي لحظة للولادة. وفي صنعه للمواقف المتقدمة، يضحي بنفسه كفرد، ويبدع في التضحية في إفناء حياته الفردية فداء لأمته ووطنه، ويسجل موقفاً للأُمة يفوق أهمية وجوده الشخصي، ويتناول حياة ووجود أمته بأسرها. هذه المواقف البطولية الاستشهادية تقوم على أساس وجداني يتبنى قيماً إنسانية عليا، ويؤرخ لمفاصل كبرى من تاريخ الأمة، وتتجسد في سلوك الاستشهادي العملي إزاء قضية أمته وعدالتها برؤية قومية وإنسانية في آن معاً.

الاستشهادي بخوضه هذه الجبهة القتالية النبيلة بمعناها القومي، إنَّما يدعو الإنسان الحرّ في كُلّ زمان ومكان إلى نصرة الحقّ والعدل في قضيته، من خلال صرخة الجسد المتفجر باسم قضية شعبه وعدالتها. المنطلقات في العمل الاستشهادي هي واحدة: كُلّ استشهادي يقدم على خطوة الموت الإرادي/ الاستشهاد، فلأنه مشبع بعدالة القضية التي يستشهد من أجلها بكل تفاصيلها وأهدافها الكبرى، قاعدة انطلاقه الدافع النفسي البطولي المصارع لاقتحام الموت وإحراز النصر موقفاً، وتغيير موازين قوى ـ بمعناها العسكري القتالي ـ في ساحة الصراع.

إن الذين تمرسوا بفلسفة الاستشهاد، هم رموز إنسانية استثنائية في التاريخ، اختصت بتلك السوية العالية من العقلانية والوجدان في إطار البطولة الاجتماعية والتضحية الفردية في أعلى مستوياتها، انتصاراً للحق والعدالة الإنسانيين وإسهاماً فذاً

مبدعاً في تحقيقهما، حيثُ عزّ الحياة وشرف الموقف. حيثُ الزمان هو زمان الصراع، والمكان هو تراب الوطن، والغاية هي ردّ المعتدي وظلامية باطله، فقرار الاستشهاد، يقدم عليه «البطل المخلّص» على طريقته الاستثنائية الإبداعية في التعبير، مقتحماً الموت، على جبهة صراع الأمة ضدّ أعدائها، على نحو حرٍّ مدركٍ واعٍ في الزمان والمكان المناسبين، وفي المعركة المناسبة، ينكفئ الزمان هنا، وتنكفئ قدرة الموت على تحديد لحظة موته الفردي، ويتجلى البطل المخلص ممسكاً بزمام الزمان، كما بزمام الموت، حيثُ ليس غير تراب الوطن، قُدس المكان في سُرّه وفي علنه، ينسف كُلّ المقاييس الزائفة، ولا يبقى غير مقاييس حياة الأمة ومصلحتها ومصيرها، أنموذجاً للعدل الإنساني الأشمل والأعمق في حقيقة الوجود.

وحيث تستمد الأمة روحها من تاريخها الثقافي السياسي القومي ولا راد لها عن حقها، فالاستشهادي يؤمن بحتمية واحدة في التاريخ، هي حتمية إرادة الأمة، وتعبيره عن هذه الإرادة إنّما كان خطوة يخطوها بموته على طريق النصر، بل إن خطوته الاستشهادية أرادها تأكيداً لهذا النصر. تلك هي الرسالة المعنوية التي يؤديها الفعل الاستشهادي للأُمة. والاستشهادي يريد بإنجازه فعلاً تصحيحاً تقويمياً ارتكز على مبادئ وقيم إنسانية عالية ثابتة، وعلى مشروعية قومية تعيد إنتاج المضامين القيمية لوجود الإنسان بعد استباحتها، فالاعتداء على أمة هو اعتداء وجودي، ثقافي ـ مادي ـ نفسي يتوخى تدمير الأمة وإلغاء وجودها المادي بمخزونه الروحي التاريخي الثقافي. وخيار الاستشهاد هو خيار الفعل في مواجهة الاعتداء على الوجود والهوية، أمة ووطناً.

سادساً: مستقبل المقاومة

إن المنظومة الروحية الثقافية للهلال الخصيب، ومنها مفهوم الصراع، هي ملحمة حياة مستمرة بدأت بسؤال الحياة والموت، والعدالة والحق والحرية، وتواصلت تطبيقاً، أحداثاً وأسماء كبرى في التاريخ، وتمرساً حتّى الاستشهاد. واليوم، أوَليس حرياً بنا، تمرساً بحرية الصراع، أن يكون محور الفلسفة في القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد، إعادة السؤال نفسه، بل الأسئلة نفسها التي بدأنا بها، بما تحمله من موضوعات باتت ملحة للبحث على المستوى الفلسفي، خصوصاً في ما تحمله الفلسفة من دور في عملية الصراع، وأن تكون الأجوبة عن تلك الأسئلة هي الأفق الذي تتجه إليه اللحظة الراهنة، حيثُ يكبر السؤال حول الحقّ والعدالة الإنسانيين، في ظلّ ما يجري في فلسطين والعراق وبقاع عديدة من العالم باسم «العولمة» و«الديمقراطية» و«الحرية»، تحت مظلة المنظمات الدولية التي تتكلم باسم الشعوب زيفاً؟

إن المستقبل الفلسفي، إما أن يكون مستقبلاً أخلاقياً، أو لن يكون هناك مستقبل فلسفي على الإطلاق. إن اللحظة ملحة، وفلسفة الصراع الجديدة القديمة سوف تدين المئة سنة الماضية من القرن العشرين بما تضمنته من تغييرات سياسية قسرية وجرائم إنسانية ودمار شامل وتجرد مطلق من الإنسانية، واستعمال عناوين الحقّ والعدالة لعمليات زيف «تشريع» إنشاء «دولة إسرائيل»، وما نتج عن ذلك، من تفاعلات تدميرية تخريبية لشعبنا وللعالم أجمع. أما منطق الصراع في الهلال الخصيب استمراراً في القرن الواحد والعشرين فقد حسم أمره استمراراً، بتطبيق «إننا أمة حية كم من تنين قتلت في الماضي. ولن يعجزها قتل هذا التنين متعدد الرؤوس»، وإن إرادة الأمة صاحبة الحقّ في الوجود والحياة، هي وحدها التي تستخلص «ما ينبغي» مما هو «حاصل» بكل كرامة وعدل وحرية، وقد نهلت من مخزونها في مفهوم الصراع، فلسفة الاستشهاد، قولاً فصلاً في إثبات الحقّ القومي، حقّ الحياة والوجود، دفاعاً عن قيم العدالة والمساواة والحق للعالم كُلّه، دافعين إلى العالم مرة أخرى رسالة الحقّ والحياة، في أنموذج جديد من البطولة، يؤرخ لانتصارنا الآتي في أغرب وأشرس معركة وجودية عرفها التاريخ.

المراجع

باقر، طه. **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.** بغداد: دار البيان؛ بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣. ٢ ج.

ج ١: **تاريخ العراق القديم.**

ج ٢: **حضارة وادي النيل.**

جواد، حسن فاضل. **الأخلاق في الفكر العراقي القديم.** بغداد: بيت الحكمة، ١٩٩٩.

الحوراني، وداد. **الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم.** بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٨.

الحوراني، يوسف. **البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم.** بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٨.

سعادة، أنطون. **الأعمال الكاملة: المجلد الثامن (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩).** بيروت: مؤسسة سعادة للثقافة، ٢٠٠١.

السواح، فراس. **دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني.** دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٤.

ـــــ. **لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة.** ط ٦. دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٦.

ـــــ. **مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة: سورية وبلاد الرافدين.** ط ١١. دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٦.

فضل الله، مهدي. **بدايات التفلسف الإنساني: الفلسفة ظهرت في الشرق.** بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٤.

الماجدي، خزعل. **متون سومر: التاريخ، الميثولوجيا، اللاهوت، الطقوس.** عمّان: منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

نصار، ناصيف. **في التربية والسياسة: متى يصير الفرد في الدول العربية، مواطناً؟.** بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠. (الفلسفة)